مقرر الفصل الأول لمادة النقد القديم

جامعة الأنبار – كلية الآداب – قسم اللغة العربية

النقد في عصر ما قبل الاسلام

ظهر النقد في عصر ما قبل الاسلام هينًا سهلًا ساذجًا، لا يمكن لنا أن نطلق عليه نقدًا بالمفهوم الحقيقي للنقد، إنما ما صدر عن النقاد يمثل آراء ونظرات وخواطر فرضتها أحاسيس النقاد تجاه المفردة، لذا يمكن أن نطلق عليه نقدًا فطريًا انطباعيًا قائمًا على الإحساس بأثر الشعر في النفس والحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفًا .

في ضوء ما تقدم يمكن أن نتلمَّس هذه الملامح النقدية في جملة أمور:

1ـ الأحكام النقدية:

لم يكن النقد محصورًا على طائفة محددة، بل شمل من له دراية بالنظم ومعرفة أحوال العرب، وألف لغتها، لذا قد يكون الناقد شاعرًا كالنابغة أو حاكمًا كالنعمان بن المنذر أو راوية للشعر، أي أنَّ دائرة النقد تتسع لأكثر من هذه المسميات .

روى الأصمعي أنَّ النابغة كانت تضرب له قبَّةٌ بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء، فتعرض أشعارها عليه، فأتاه الأعشى، ثم أتاه حسان فأنشده:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضحى واسيافُنا يقطرنَ من نجده دَمَا

وَلدنا بني العنقاء وابني محرَّقٍ فأكرم بنا خالًا وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة: (أقللت أسيافك، ولمعت جفانَك، يريد قوله" الغرُّ" ولو قال البيض فجعلها بيضًا كان أحسن، إلا أن الغرَّ أجلُّ لفظًا ... الخ .

وروايات أخرى أن النابغة اعترض على قوله (يقطرن)؛ لان في ذلك إقلال في القتل ولو قال: (يجرين) كذلك اعترض على افتخاره ممن وَلد ولم يفتخر بمن وَلده .

- هذه اللمحة النقدية من لدن النابغة تجاه شعر حسان أثارت انتباه النقاد المحدثين فهذا الأستاذ طه أحمد ابراهيم يرفض هذه الرواية؛ لأنَّ ما فيها من نقد تأباه طبيعة الاشياء، إذ لم يكن الجاهلي يعرف جمع التصحيح وجمع التكسير وجموع القلَّة وجموع الكثرة، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الاشياء، كما فرَّق بينها ذهن الخليل وسيبويه.

أما الدكتور طه الحاجري، فيرى أنَّ ما فيها لا يدعو الى الشك القائم على معرفة جموع القلَّة أو الكثرة، فالنابغة ميَّز بحسه اللغوي بين استخدامين (أسياف) و(سيوف) و(جفنات) و(جفان)، فلاحظ في الأولى دلالة القلة وفي الثانية دلالة الكثرة، ومعرفة كهذه ليست بعيدة عن عرب الجاهلية عامة وشعرائهم خاصة.

أما الدكتور ناصر حلاوي فيرى (أنَّ الكلمة في النص الشعري لا ينظر الى دلالتها المعجمية، بل الى دلالتها الرمزية الإيحائية، وعلى هذا، فإنَّ كلمة (أسياف) يمكن أن تفهم بدلالتها الرمزية القائمة على الشجاعة والإقدام والنجدة والقتل، فالرواية تدل على أنَّ النقد في ذلك العصر كان يوجه عنايته للألفاظ واستعمالاتها ودلالاتها في السياق الذي ترد فيه.. أما الفخر بالأولاد من دون الآباء فهو نقد لا يمت بصله الى الفن الشعري، إنَّما هو نقد اجتماعي يرتبط بالأعراف الاجتماعية.

ويروى أنَّ الخنساء أنشدته قولها:

وإنَّ صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به كأنَّه علمٌ في رأسه نار

فقال لها: لولا أنَّ أبا بصير انشدني آنفًا لقلت إنك أشعر العرب، فغضب حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة: يا ابن أخي انك لا تحسن أن تقول:

فإنَّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسع

خطاطيفُ حجنٌ في حبال متينة تمدُّ بها أيدٍ اليك نـــــــــوازع

يقال: إنَّ حسان بن ثابت خنس.

ويذكر أبو الفرج أنَّ عبدالله بن قتادة قال: " كنت مع النابغة بباب النعمان، فقال لي، هل رأيت لبيد بن ربيعة فيمن حضر؟ قلت: نعم .قال أيهم اشعر ؟ قلت الفتى الذي رأيت من حاله كيت وكيت، فقال: اجلس بناحيتي حتى يخرج الينا، قال فجلسنا، فلما خرج قال له النابغة: اليَّ يا ابن أخي، فأتاه، فقال: أنشدني، فأنشده قوله:

ألم تُلمِم على الدِّمنِ الخوالي لسلمى بالمذانب فالقفالِ

فقال له النابغة: أنت أشعر بني عام، زدني، فأنشده:

طللٌ لخولةَ بالرَّسيسِ قديمُ فبعاقل فالأنعمينِ رسومُ

فقال له: أنت أشعر هوازن، زدني، فأنشده قوله:

عفتِ الدِّيارُ مُحَلُّها فمقامُها بمنىً تأبَّدَ غولها فرجامُها

فقال له النابغة: اذهب فأنت أشعر العرب".

ومن الأحكام النقدية ما روي أن امرأ القيس وعلقمة الفحل اختصما في أيِّهما أشعر، فاحتكما الى أمِّ جندب، فقالت لهما: قولا شعرًا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروي واحد، فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مُرّا بي على أُمِّ جندب نقضّي لبانات الفؤادِ المعذَّبِ

وقال علقمة:

ذهبت من الهجرانِ في غير مذهبِ ولم يكُ حقًا طولُ هذا التجنبِ

فقالت لامرئ القيس: علقمةُ أشعر منك، قال كيف؟ لأنَّك قلت:

فللسوط الهوبٌ وللساقِ درَّة وللزجرِ منه وقعٌ أخرجَ مهذبِ

فجهدت فرسك بسوطك ومريته، فأتعبته، وقال علقمة:

فأدركهنَّ ثانيًا من عنانه يمر كمرِّ الرائح المتحلبِ

هذه الرواية أثارت انتباه النقاد المحدثين، فهذا الدكتور ناصر حلاوي يقول: " والقصة على النحو الذي يرد في المصادر القديمة لا تدعو للاطمئنان، فالموازنة التي أرادت أم جندب إقامتها بين الشاعرين اعتمدت وحدة الموضوع (وصف الفرس) ووحدة القافية والروي، ومثل هذه الموازنة تبدو غير طبيعية على امرأة بدوية ساذجة تستخدم مصطلحًا عروضيًا (القافية والروي) في زمن لم تكن هذه المصطلحات قد نشأت بعد".

وعليه يمكننا القول إنَّ الموازنة على هذا الأساس لم تنشأ إلا في مرحلة متأخرة بالتحديد عند الآمدي في كتاب (الموازنة بين الطائيين) ومع ذلك قد يكون للقصة أساس من الصِّحة، ولكن ليست على نحو ما رواها المرزباني وغيره، فقد تكون هذه القصة أنَّ أم جندب فضَّلت شعر علقمة ولكن لم يكن التفضيل ولا الموازنة على هذه الأسس التي تشير إليها الرواية، بدليل أنَّ القصة تروى بروايات عدَّة، الأمر الذي دعا الى الشَّك فيها وعدم الاطمئنان إليها.

لذا قال الدكتور طه الحاجري: " وقد يكون في النفس شيء من هذه القصة على أساس أنَّ ما تتضمنه من نقد أشبه بصنيع المتأخرين في النقد والموازنة، ولكنني مع ذلك لا أذهب الى حدِّ انكارها جملة ورفضها رفضًا مطلقًا"

ومن الأحكام النقدية ما روي عن ابن قتيبة أنَّ الحطيئة دخل على عتبة العجلي، فسأله: من أشعر العرب؟ فقال الذي يقول:

ومن يجعل المعروفَ من دون عرضهِ يَفِرْهُ، ومن لا يتَّقِ الشَّتمَ يُشتَمِ

يعني زهيرًا، قال ثم من؟ قال الذي يقول:

مَنْ يسأل الناسَ يحرموهُ وسائلَ اللهِ لا يخيبُ

يعني عُبيدًا، قال ثم من؟ قال: انا".

- وهناك مجموعة احكام صدرت من لدن ربيعة بن خدارٍ الأسدي على مجموعة من الشعراء، وهم الزبرقان، وعمرو بن الأهتم، وعبدة بن الطيِّب، والمخبل السعدي، فقال للزبرقان: (أما أنت فشعرك كلحم أُسخن لا هو أُنضج فأُكل ولا ترك نيئًا فينتفع به)

نفهم من هذا التعليق على أن شعر الزبرقان لم يصل الذروة من النضج والاكتمال ولم ينخفض نحو الحضيض، بل وسط بين الجودة والرداءة.

وقال للمخبل: (أما أنت يا مخبل فإنَّ شعرك قصَّر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم).

وقال لعبدة:(أما أنت فشعرك كمزادةٍ أُحكم خرزها فليس تقطر ولا تُمطر).

ففي القول إشارة الى قوة بناء الهيكل والشكل في القصيدة بحيث لا توجد الكلمة القلقة والقافية المضطربة واللفظة الزائدة.

قال لعمرو: (اما انت فشعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر، فكلما أُعيد فيها النظر نقص البصر).

هذه الآراء النقدية وجدت مكانًا طيبًا في فكر الدكتور إحسان عباس، فقد عدَّ هذه الموازنة من أرقى الأمثلة وأشدها دلالةً على طبيعة النقد الأدبي قبل أن يصبح لهذا

النقد كيان واضح، فهو نموذج يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون اللجوء الى التحليل، وهذا هو شأن أكثر الأحكام النقدية في عصر ما قبل الإسلام والعصور التي تلته وصولًا الى أواخر القرن الثاني الهجري.

2ـ أخطاء الشعراء

تشير الأخبار الى أنَّ عرب الجاهلية كانوا يحسنون الإنصات الى الأشعار التي كانت تُنشد في المحافل، وأنهم كانوا يلحظون أخطاء الشعراء، ويلاحظ أنَّ جمهرة ما أخذوه على الشعراء خطأ في القافية، يُعرف بالمصطلح العروضي (الاقواء) ويعني اختلاف حركة الروي في القصيدة الواحدة من الكسر الى الضم، قال ابن سلام عن شعراء الطبقة الجاهلية الاولى: (ولم يقو من هذه الطبقة ولا من أشباهم الا النابغة في قوله:

أمِنْ آل ميّة رائحٌ او مغتدٍ عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوّدِ

زعمَ البوارحُ أنَّ رحلتنا غداً وبذلك خبَّرنا الغرابُ الاسودُ

وقوله:

سقطَ النصيفُ ولم تُرد اسقاطَهُ فتناولتهُ واتقتنا باليدِ

بمخضَّبٍ رُخصٍ كأنَّ بنانَهُ عَنمٌ يكادُ من اللطافةِ يُعقَدُ

يقال: فقدم النابغة المدينة، فعيب عليه ذلك، فلم يأبه لهما حتى أسمعوه إيَّاه في غناء، فقالوا للجارية: إذا صرت الى القافية فرتلي، فلما قالت: (الغرابُ الاسودُ) و (يعقدُ) و (باليدِ) عَلِم وانتبه، فلم يعد فيه. وقال: قدمتُ الحجازَ وفي شعري ضَعفٌ ورحلت عنها وأنا أشعر الناس.

ورصد النقاد الخطأ في الوصف، اذ روي أنَّ المسيَّب بن عَلس أنَّه مرَّ "بمجلس بني قيس بن ثعلبة، فاستنشدوه، فأنشدهم:

ألا أنعِم صباحًا أيُّها الربع واسلم نُحييك عن شُحطٍ وإن لم تكلَّمِ

فلما وصل الى قوله:

وقد أتناسى الهمَّ عند ادِّكارهِ بناجٍ عليه الصَّيعريَّةُ مُكدَمِ

وقال طَرَفَة، وهو صبي: استنوق الجملُ، فقال المسيِّب يا غلام اذهب الى أمك بمؤبِدة، أي داهية، ولحظنا ـ هنا ـ أنَّ الخطأ في نسبة الصيعرية الى الجمل، وهي سمة في عنق الناقة لا البعير.

3- البراعة في النظم

تعدّ البراعةُ في النَّظم ملمحًا نقديًّا يتم من خلالها الحكم ببراعة الشاعر وتفوقه وهذا ما أطلقوا عليه بـ "الإجازة" وتعني أن يتمم الناظم مصراعَ الآخر أو بنظم بيت على غرار بيت آخر على نحو يحافظ فيه على التساوق بين المصراعين أو البيتين حتى كأنَّهما نسيجُ شاعر واحد لا شاعرين. قال ابن رشيق: "وأما الإجازة فإنَّها بناء الشاعر بيتًا او قسيمًا يزيده على ما قبله ".

ويتمثَّل الجانب النقدي في الإجازة في أنَّها تقتضي إدراكًا دقيقًا لطبيعة النسيج اللغوي والدلالي المحاكي ابتغاء إتقان محاكاته، ويبلغ الإحسان ذُروتَه عند تحقق التطابق التام بين المصراعين أو البيتين. وهذا كله يعدُّ إبداعًا وقدرةً على النظم؛ لان ذلك لا يتأتى إلا لشاعر امتلك ناصية الشعر وبرع فيه.

ومن ذلك ما روي عن النابغة عندما نزل بسوق بني القينقاع فحاصت ناقته عندما سمعت

الأصوات فأنشأ يقول:

كادت تُهال من الأصوات راحلتي

ثم قال للربيع بن أبي الحُقيق: أجز يا ربيع، فقال:

والنَّفرُ منها إذا ما أوجست خَلُقُ

فقال النابغة:

لولا أُنهنهها بالسوطِ لاجتذبت

أجز يا ربيع، فقال:

منِّي الزِّمام وإنِّي راكبٌ لَبِقُ

فقال النابغة:

قد ملَّتِ الحَبسَ في الآطام واشتعَفَت

أجز يا ربيع، فقال:

إلى مناهِلها لو أنَّها طَلَقُ

فقال النابغة: " أنت يا ربيع أشعر الناس "

ومن ذلك ما دار بين امرئ القيس والتوأم اليشكري، واسمه الحارث بن قتادة، فقال له إن كنت شاعرا كما تقول، فملط لي أنصافَ ما أقول فأجِزها، قال: نعم.

فقال امرؤ القيس: **أحارِ ترى بريقًا هبَّ وهنًا**

فقال التوأم: **كنارِ مجوسٍ تستعرُ استعارا**

فقال امرؤ القيس: **أرقتُ له ونام أبو شريح**

فقال التوأم: **إذا ما قلت قد هدأ استطارا**

فقال امرؤ القيس: **كأنَّ هَزيزهُ بوراءِ غيبٍ**

فقال التوأم: **عشارٌ ولهٌ لاقت عشارا**

وحين سمع امرؤ القيس لأساليبهم القوية قال لهم: "إنّي لأعجب من بيتكم هذا كيف لا يحترق من جودة شعركم، فسموا بني النار يومئذ"

والملاحظ أنَّ امرأ القيس قد أختار بدءًا غرض الوصف من دون بقية الأغراض الأخرى، وهذا له دلالة عنده بوصفه شاعرًا؛ لأنَّ الوصف يعنى بالتصوير، لذلك عمد إليه ليختبر به شاعرية التوأم عن طريق تكوين الصور التشبيهية التي مهَّد لها ضمنًا في شطره ليتلمس عن كثب ملكة الشعر عند الحارث، إذ إنَّ التشبيه الجميل لا يقع إلا لمن طال تأمله ولطف حسه، وميَّز بين الأشياء بلطف فكره.

4ـ تعدد الاغراض

لاحظ عرب الجاهلية تفوق بعض الشعراء في بعض الأغراض، ويظفر الدارسُ بغير قليل من الأحكام التي تصوِّر هذا الأمر. قال أبو الفرج: "كانت قريش تقول عن الأعشى، هذا صنّاجة العرب ما مدح أحدًا قط إلا رفع قدره"

فالأعشى من أولئك الشعراء الذين نالوا مكانةً مرموقةً وطبقةً رفيعةً بين نظرائه؛ بسبب تعدد أغراضه، فهو يعدُّ في الطبقة الاولى بين شعراء الجاهلية مع امرئ القيس، والنابغة، وزهير، يقول شارح ديوانه بأنه: "لا يخلو من هنات أبرزها تكرار بعض المعاني " وقال عنه ابن سلام: " ولم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه " فلولا تعدد أغراضه وقدرته على النظم في الأغراض

جميعها هو الذي مكَّنه من أن يحتل مكانته ضمن هذه الطبقة يقول الاصمعي: " إنَّ أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحدًا، قال: وكان خلف لا يقدم عليه أحدًا.

وقال أبو حاتم؛ لأنَّه قد قال في كلِّ عروض وركب كل قافية ".

يقول أبو عبيدة: " من قدَّم الأعشى يحتج بكثرة طواله الجِياد وتصرفه في المديح والهجاء وسائر الفنون وليس ذلك لغيره".

وقال أبو عمرو بن العلاء عن الأعشى: "مَثَّله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره، ويقول: نظيره في الإسلام جرير"

وقال عنه ابن شرف القيرواني: "ولا كميمون بن قيس شاعر المدح والهجاء واليأس والرجاء، والتصرف في الفنون، والسعي في السهول والحزون".

5- النقد الجاهلي في ضوء مقاييس النقد الحديث

انقسم النقاد إزاء النقد في عصر ما قبل الإسلام على قسمين:

الأول: يرى أنَّ النقد في هذا العصر قائم على الأحكام الجزئية السريعة الانطباعية.

الثاني: أنَّ الأحكام التي وردت على ألسنة الجاهليين ليست من النقد في شيء؛ لأنَّ النقد الصحيح هو الذي يستند إلى قواعد وأصول ومنهج، وان مثل هذا لم يحصل إلا في القرن الثاني للهجرة.

يقول الأستاذ طه احمد ابراهيم: "إنَّه نقد ناشئ قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس، والحكم مرتبط بهذا الإحساس قوةً وضعفًا، عماد الناقد في أحكامه الذوق والسليقة فهما اللذان يهديانه الى الجيِّد من القول وإلى الرؤى منه، فليس لديه قواعد أو مقاييس محددة يستند إليها في إصدار أحكامه.

ويقول د. أحمد أمين: " لم يكن النقد مبنيًا على قواعد فنية ولا على ذوق منظم ناضج، بل هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة، وقد احتاج النقد إلى زمن طويل حتى أُسس على قواعد ثابتة.

أما الدكتور طه الحاجري فيرى أنَّ (النقد الأدبي عند العرب لم يتميَّز بذاته ولم يصبح فنًا قائمًا بنفسه له اتجاهاته الخاصة به وله رجاله المعنيون به .. فمن الطبيعي أن يكون النقد في مراحله الأولى ساذجًا بسيطًا وانفعالًا أوليًّا تلقاء الأثر الفني، وتعبيرًا عن ذلك الانفعال في عبارات تناسبه سذاجة وأولية)

أما الدكتور محمد مندور، فقد حدد النقد بأمرين:

1-الافتقار الى المنهج؛ لأنَّ المنهجية تحتاج رجلًا نما تفكيره واستطاع أن يُخضع ذوقه لنظر العقل.

2-الافتقار الى التعليل، لأنَّه لا يمكن أن يتوافر للبدوي التعليل؛ لأنَّه يستند إلى مبادئ عامة وسعة في العلوم اللغوية والأدبية.

تطبيقات الفصل الاول

س1/ استند النابغة الذبياني في أحكامه الى ذوقه وإحساسه بأثر الشعر في نفسه. ناقش ذلك ثم بيِّن الموقف النقدي الحديث من حكومته.

س2/ تعدُّ البراعة في النَّظم معيارًا نقديًّا عند النقاد في عصر ما قبل الإسلام، ناقش ذلك.

س3/ عدَّ الدكتور إحسان عباس (رحمه الله) موازنة ربيعة بن حذارٍ الأسدي من أرقى الأمثلة وأشدها دلالة على طبيعة النقد، ناقش ذلك .

س4/ تباينت مواقف النقاد المحدثين تجاه حكومة أم جندب، ناقش ذلك.

س5/ تعدّ الأخطاء الشعرية في عصر ما قبل الإسلام ملمحًا نقديًا قائمًا على رصد الهفوات وتتبعها، ناقش ذلك. س6/ انقسم النُّقاد المحدثون في تقييمهم للنقد في عصر ما قبل الإسلام على طائفتين، ناقش ذلك.

النقد في عصر صدر الإسلام

إنِّ الباحثَ في النقد العربي القديم لا ينبغي له ان يتوقع العثور على نصوص نقدية يقصرها أصحابها على الاعمال الادبية من شعر وخطابة في مرحلة الدعوة الأولى، وما ينبغي له ايضًا أن يطمح الى اكثر من تبيّن موقف الاسلام في الشعر، ولاشك في أنَّ الموقف في الشعر شيء، ونقد الشعر شيء آخر .

يبدو أنَّ إخضاع الموقف الجمالي للموقف الديني هو الذي يحرص عليه الاسلام ويؤكده ولاستجلاء موقف الاسلام من الشعر والتجربة الجمالية التي يولدها لابد من استعراض ثلاثة مواقف إزاء فن القريض، وهي على النحو الآتي:

1-موقف القرآن من الشعر والشعراء

في القرآن الكريم ذكر لثلاثة اشياء لها صلة بهذا الموضوع ، الشاعر، والشعراء، والشعر، وذلك في ستة مواضع :

أ- قولة تعالى (*بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ* شَاعِرٌ)

ب- قولة تعالى (*وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ* مَجْنُونٍ)

جـ- قولة تعالى (*أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ* رَيْبَ الْمَنُونِ)

د – قولة تعالى (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ)

هـ- قولة تعالى (*وَمَا عَلَّمْنَاهُ* الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ)

و- قولة تعالى (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).

فالآيات الثلاث الاولى تبين موقف من تصوروا القرآن ضربًا من الشعر، ولم يؤمنوا بأنَّه وحي يوحي به الله الى نبيه محمد "ﷺ".

أما الآيتان (4 ،5) فتردان على هذا الموقف، وتؤكدان ان ما جاء به النبي محمد "ﷺ" ليس شعرا، وان محمدًا لم يعلّم الشعر وما ينبغي له ذلك. أما الآيات في الموضع السادس، فتتحدث عن موقف الاسلام من الشعر. نفهم من ذلك الآتي:

1-نفي الشاعرية عن النبي "ﷺ" ونفي أن يكون ما أتى به شعرا؛ لأن الباري . عز وجل . لم يعلِّمه الشعر ، ومن هنا يقول ابو زيد القرشي (كان رسول الله "ﷺ" لا يعرف الشعر، ولا يقوله ولكنه كان يعجبه استماعه).

2-يقسم القرآن الناس من جهة اتباعهم فريقين، احدهم اتبع الباطل، والآخر اتبع الحق، ويصف الذكر الحكيم أتباع الشعراء وأتباع الشياطين بوصف واحد "الغاوون" .

3-يفهم من الذكر الحكيم ان المضمون الشعري عند الشعراء غير المؤمنين يخضع لنزوات الشاعر وميوله ولضرورات النظم، فالشاعر يهيم في كل وادٍ ، وقد يقتاده النظم الى معانٍ لا يقصد اليها، وجملة القول إن هيجان نفس الشاعر عند الابداع يضعف سلطان العقل على القول ، فينقاد الشاعر وراء القول .

4-يصف القرآن الكريم الشعراء بأنهم (يقولون ما لا يفعلون) ويبدو أن هذا الحكم خاص بشعر الفخر والمديح والنسيب والاغراض التي يدَّعي فيها الشعراء .

5-يستثني الذكر الحكيم من الحكم السابق نفرًا من الشعراء عدّد لنا بعض خصائصهم **(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)**

2ـ موقف الرسول محمد "ﷺ" من الشعر

للرسول محمد "ﷺ" موقف صريح من الشعر، فهو القائل: (إنَّ من البيان لسحرا وإنَّ من الشعر لحكمة) لان الشعر لصيق بالنفس العربية، ويؤدي في المجتمع وظائف أساسية، فقد قال الرسول "ﷺ" :(إن هذا الشعر سجع من كلام العرب، به يعطى السائل، وبه يكظم الغيظ، وبه يؤتى القوم في ناديهم) وقال:(لا تدع العربُ الشعرَ حتى تدعَ الإبلُ الحنين).

إذ إن الموقف الإيماني هو المنشود قبل كل شيء عند رسول الله "ﷺ" والميزان الذي يزنُ به المصطفى "ﷺ" شعر الشعراء هو ميزان الاسلام والإيمان أيًّا كان حظ الشاعر من الابداع، ففي الأخبار أنه أتى قومٌ رسولَ الله "ﷺ"، فسألوه عن أشعر الناس، فقال: ائتوا حسان، فأتوه، فقال: ذو القروح يعني امرأ القيس، فرجعوا فأخبروا رسول الله "ﷺ"، فقال: صدق، رفيع في الدنيا خامل في الآخرة، شريف في الدنيا وضيع في الآخرة، هو قائد الشعراء الى النار".

وغير خافٍ أن الموقف الإيماني للشاعر، إنما يتصل بالمضمون الشعري أكثرُ من اتصاله بالشكل، فقد روى صاحب الاغاني أنه سمع النبي "ﷺ" كعب بن مالك يقول :

مُقَاتَلُنا عن جِذْمنا كلَّ فخمة مذرّيةٍ فيها القوانس تلمعُ

فقال له: (لا تقل عن جذمنا ، ولكن قل: مقاتلنا عن ديننا)

ويروى أن كعب بن زهير: انشد قصيدته المشهورة:

إنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيوفِ الهندِ مَسْلُولُ

قال له: (من سيوف الله، فأصلحها كعب)

من يتتبَّع الاخبار يجد الرسول "ﷺ" قد وظف الشعر في نصرة دعوته، فقد جاء في الأثر: أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واستشفى، فالهجاء الذي أيَّده الرسول الكريم "ﷺ" هو الهجاء الموجَّه الى المشركين الذي يرمي الى نزع الشرك من النفوس وإزالة هالات التقديس عن آباء وأجدادٍ عاشوا في ظل الوثنية، ففي حديث شاعر الإسلام كعب بن مالك قوله: قال لنا رسول الله "ﷺ": (اهجوا المشركين بالشعر فإنَّ المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمدٍ بيده، كأنَّما تنضحونهم بالنَّبل) والفخر الذي أيَّده النبي "ﷺ" فخر يقيم الإسلام وتعاليمه.

أما المديح الذي يحسن لدى رسول الله "ﷺ" فهو المديح الذي يصوّر الحقيقة لا يتجاوزها، فالإسلام يريد من الشعر أن يظل في إطار الحقيقة، ففي الأثر أنَّ النبي "ﷺ" قال لحسان:(هل قلت في أبي بكر مثلا ؟ قال: نعم، قال: قلت وأنا أسمع قال:

وَالثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ الْمُنِيفِ وَقَدْ خَافَ الْعَدُوُّ بِهِ إِذ يَصعدُ الْجَبَلَا

وَكَـانَ رِدْفَ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُـوا مِنَ الْبَرِيَّـةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُـلَا

فضحك رسول الله "ﷺ" حتى بدت نواجذَهُ، قال: صدقت يا حسان، هو كما قلت).

يفهم من المناسبات الكثيرة أن " أحسن الشعر اصدقه" عند النبي "ﷺ" روى أبو هريرة (رضي الله عنه) أن النبي "ﷺ"، قال: (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهُ باطلٌ وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائل

وقال" ﷺ" حين سمع ابياتًا لسويد بن عامر، قال:(لو أدرك الاسلام لأسلم) وكان رسول الله "ﷺ" معجبا بشعر عنترة لما فيه من معانٍ جميلة دالة على الشجاعة ومكارم الأخلاق، فيقول:(ما وُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة) وحين سمع قول طرفة:

ستُبْدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تزوَّدِ

قال: هذا من كلام النبوة

وعندما سمع قول عدي بن زيد :

عَنْ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ مقْتَدِ

فقال:(كلمة نبي ألقيت على لسان شاعر).

ويروى أنَّه أُنشد رسول الله "ﷺ" قول سحيم:

الحمدُ لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوعِ

فقال: (أحسن وصدق فإنَّ الله ليشكرُ مِثلَ هذا، وإن سدَّد وقاربَ إنَّه لمن أهل الجنة).

وروي أنَّ النابغة الجعدي، قال:(أنشدت النبي "ﷺ")

بلغنا السماء عِفَّةً وتكرُّما وإنَّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فغضب، وقال: أين المظهر يا أبا ليلى؟ قلت: الجنة يا رسول الله، قال: أجل إن شاء الله تعالى، وتبسم، فقلت:

وَلا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَـهُ **بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا**

وَلا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ **حَلِيمٌ *إِذَا* مَا أَوْرَدَ القَومَ أَصْدَرَا**

فقال النبي "ﷺ":" أجدت لا فض الله تعالى فاك مرتين، فعاش أكثر من مائة عام، وكان من أحسن الناس ثغرا" .

3- موقف الصحابة (رضي الله عنهم)

أولاً: موقف الخليفة أبى بكر الصديق (ﷺ)

إنَّ خلافة أبي بكر الصديق (ﷺ) لم تشهد وقفات نقدية كثيرة؛ وذلك بسبب حروب الردة، وعدم الاستقرار، إلا أنَّ هناك نظرات لم تخرج عن مألوف النقد في عصر ما قبل الاسلام، وهذا ما نلمسه في مفاضلته بين الشعراء، إذ فضَّل النابغة على غيره من الشعراء وحكم له بأنَّه (أحسنهم شعرًا وأعذبهم بحرًا وأبعدهم غورًا) إذ إنَّ النابغة في نظره (يستقي معانيه من معين عذب سائغ، فتقبلها النفوس تقبلًا حسنًا، كما أنَّه في معانيه بعيد العمق والغور، وأنَّه يظل يروي فيما يغمض منه حتى يستخرجها استخراجًا واضحًا) ويروى أنَّه سمع قول زهير :

والسترُ دونَ الفاحشاتِ وما يلقاكَ دونَ الخيرِ من ستر

قال:(هكذا كان رسول الله "ﷺ" ثم قال: أشعر شعرائكم زهير).

ثانيا : موقف الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ)

أدرك الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) أنَّ الشعر علمُ العرب الصحيح. إذا توافر له قدر من الصحة أكثر من غيره، فقد قال: (كان الشعرُ علمَ قوم لم يكن لهم علمٌ أصح منه). ووصف الشعر بأنَّه علمٌ، ويبدو أنَّ الخليفة كان يشير الى معنى للشعر قريب من كونه ذاكرة الأمة ووعاءَ معرفتها. وجملة القول إنَّ الخليفة عمر (ﷺ) يُقرُّ بكون الشعر مصدرًا رئيسًا من مصادر المعرفة عند العرب، ومن هنا يأتي قوله: (تحفَّظّوا الأشعارَ

وطالعوا الأخبارَ، فإنَّ الشعر يدعو الى مكارم الأخلاق، ويعلِّم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال ويفتق الفطنة ويشحذ القريحة ... وينهى على الأخلاق الدنيئة).

لذا فان الخليفة الراشدي التزم بهذا الموقف، وطبق ما في الشعر في سلوكه، ففي الأخبار أنَّه ما أبرم عمر ابن الخطاب أمرًا قط إلا وتمثَّل فيه ببيت شعر؛ لان الشعر في تصوره سبيل الى تكوين الانسان الفاضل.

أما موقفه من الشعر فيروى أنَّ العباس بن عبد المطلب سأله عن الشعراء فقال: (امرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معانٍ عُور أصحَّ بصر، وأشعر الشعراء عنده زهير بن أبي سلمى؛ لأنَّه (لايعاظلُ بين الكلام، ولا يتَّبع حوشيَّه، ولا يمدحُ الرجلَ إلا بما فيه) تعد هذه الملاحظات خطوة متطورة في مسار النقد الأدبي، فهي تنبئ عن إنعام نظر في شعر زهير شكلًا ومضمونًا ، فزهير أشعر الشعراء؛ لأنَّه لا يداخل بين مكونات العبارة، بل تمضي تراكيبه على نسق واضح العلاقات، لا تعقيد في كلماته ولا تداخل، مما يسهل إدراك معانيه دون إعنات، ثم إنَّك لا تجد في أسلوب زهير قصدًا الى غريب الألفاظ ، وأما قوله : (لا يمدح الرجل الا بما فيه) فقد فهم منه ابن رشيق القيرواني أنَّ زهيرًا صادقٌ في مديحه.

وأشعر غطفان عند الخليفة عمر (ﷺ) النابغة الذبياني، لما يؤثر عنه حسن تأتيه المعاني والبراعة في التصوير في إطار من التخييل المحبب إلى النفس يذكر صاحب الجمهرة أنَّه خرج عمر وببابه وفد من غطفان، فقال: أيُّ شعرائكم الذي يقول :

حَلفتُ فَلَم أترك لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذهبُ

ولستُ بمُستبقٍ أخاً لاتلُمُّـهُ ... على شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المهذبُ

قالوا: النابغة، قال: فمن الذي يقول:

خطاطيفُ حُجنٌ في جبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدٍ إليـــــــكَ نـــوازعُ

فإنّكَ كاللّيلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنتأى عنك واسِعُ

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين، قال: فمن القائل :

إلى ابنِ مُحَرِّقٍ أعمَلتُ نَفسي وراحلَتي، وقد هَدَتِ العُيونُ

فألفَيتُ الأمانَةَ لـم يَخُنْها كذلكَ كانَ نُوحٌ لا يَخُونُ

وهكذا استمر بالسؤال، فكانت الإجابة النابغة، فقال: هو أشعر شعرائكم"

ولعمر بن الخطاب (ﷺ) بصرٌ وخبرةٌ بمقاصد الشعراء في الأغراض التي يقصدونها، ولكنه وهو الإمام العادل لا يطمئن في هذا الأمر الا لذوي الخبرة الواسعة من النقدة وكبار الشعراء، فيروى أنَّ الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر، فأتى الخليفة شاكيًا، فقال له: ما قال لك ؟ قال: قال لي:

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فإنَّك أنت الطاعمُ الكاسي

فقال عمر (ﷺ) ما أسمع هجاء، ولكنها معاتبة، فقال الزبرقان: أوَ ما تبلغ مروءتي إلا أن آكلَ وألبسَ ! فقال عمر: عليَّ بحسان، فجيء به فسأله، فقال: لم يهجه ولكن سَلحَ عليه، فأمر بسجنه .. فأنشد قائلًا:

ماذا تقول لأفـراخٍ بذي مَرَخٍ زُغب الحواصِل لا ماءُ ولا شجرُ

فأخرجه، وقال له إياك وهجاء الناس، قال: اذًا يموت عيالي جوعًا هذا مكسبي ومنه معاشي. قال: فإياك والمقذع من القول. قال: وما المقذع ؟ قال: أن تخاير بين الناس، فتقول: فلان خير من فلان، وآلُ فلان خير من آلِ فلان.

وكذلك موقف الخليفة (ﷺ) من هجاء النجاشي لبني العجلان الأمر الذي دفعهم إلى تقديم شكواهم إلى الخليفة، فانشدوه قول النجاشي فيهم.

إِذَا اللَّهُ عَادَى أَهْلَ لُؤْمٍ وَرِقَّةٍ فَعَادَى بَنِي الْعَجْلَانِ رَهْطَ ابْنَ مُقْبِلِ

حاول الخليفة أن يخفف من حدَّة الهجاء في هذا البيت، فجعله مجرد دعاء .. فسكت القوم عن هذا البيت، فقالوا: ولكنه قال :

قبيلةٌ لا يغدرون بذمــةٍ ولا يظلمون الناسَ حبةَ خردلِ

فقال الخليفة: (ليت آل الخطاب هكذا) محوِّلًا صفتي الضعف والذِّلة التي أراد الشاعر وصف القبيلة بهما من منطلق قبلي الى صفة يعتد بها المسلم .. فقال القومُ: وقد قال:

ولا يردونَ الماءَ إلا عشيةً إذا صدرَ الورّادُ عن كلِّ منـهلِ

حاول الخليفة أن يوجه البيت وجهة إسلامية حتى قال: (ذلك أقل للسكاك) أي الزحام ... فقالوا: فقد قال:

تَعَافُ الْكِلَابُ الضَّارِيَاتُ لُحُومَهُمْ وَتَأْكُل مِنْ كَعْبٍ وَعوفٍ وَنَـهْشَلِ

فقال الخليفة عمر (ﷺ) (أجنَّ القومُ موتاهم فلم يضيعوهم).

وهكذا يستمر الحوار بين بني العجلان والخليفة. الأمر الذي دفعه الى استدعاء حسان بن ثابت، فأقرَّ بكونه هجاءً، فهدد الخليفةُ النجاشي ومنعه من قول الهجاء بقوله: (إن عدت قطعت لسانك).

بنى عمر بن الخطاب (ﷺ) أحكامه النقدية على أساس الصدق، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني من أنَّ عمر بن الخطاب (ﷺ) انشد قول الحطيئة:

متى تأتهِ تعشو إلى ضوء ناره تجد خيرَ نارِ عندها خيرُ مَوقدِ

فقال الخليفة : (كذب بل تلك نار موسى نبي الله)

وكان الخليفة معجبًا بالشعر الذي يصوِّر الحقائق الإيمانية، فكان يتمثَّل بقول ورقة بن نوفل:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته **يبقى الإلهُ و يفنى المالُ و الولدُ**

وكان معجبًا بقول زهير:

فَإِنَّ الحَقَّ مَقطَعُهُ ثَلاثٌ، **يَمينٌ أَو نِفارٌ أَو جِلاءُ**

وسمي زهير (قاضي الشعراء بهذا البيت).

وكان معجبًا بقول عبدة بن الطيِّب:

وَالمَرءُ سَاعٍ لِأَمرٍ لَيسَ يُدرِكُهُ **وَالعَيشُ شُحٌّ وَإِنفَاقٌ وَتَأمِيلُ.**

فقال: (على هذا ببيت الدنيا).

ثالثًا : موقف الامام علي (كرم الله وجهه)

أما موقف الإمام على (ﷺ) من الشعر والشعراء، فله وجه آخر ينبع في الأساس من أنَّ طفولته وشبابَه كانا مباشرة تحت تأثير الإسلام وكتابه الكريم، فهو لم ير مثلاً أنَّ قول الشاعر في الخمر يوجب الحدَّ مثل شربها. محاولة منه تنبيه المسلمين الى أنَّ الإسلام لم يستبعد العقل البشري؛ لأنَّ الشاعر أبا محجن الثقفي عندما قال:

وإنّي لذو صبرٍ وقد مات إخوتي **ولستُ عن الصهباء يومًا بصابرِ**

فأرادوا جلده، منعهم الخليفة (ﷺ)؛ لأنَّ الشاعر قالها وهو تحت تأثير الضرب، مذكِرًا إياهم بقوله تعالى: (وأنَّهم يقولون ما لا يفعلون) وأشهر النصوص النقدية التي تحدَّث بها

الامام علي (ﷺ) عندما كان حكمًا بين متخاصمين من الجنود في إحدى مسامراتهم في معركة "صفين"، قائلًا: (كلٌّ شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق الى ذلك وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحدٌ فضلهم فالذي لم يقل رغبةً ولا رهبةً امرؤ القيس بن حجر، فإنَّه أصحُهم بادرةً وأجودهم نادرة).

للنص أهمية في تاريخ النقد العربي، وهو في مراحل تطوره الأولى وذلك للآتي:

1. حاول الإمام (ﷺ) في الفقرة الاولى أن يدخل الشعر العربي كافة الوثني منه والاسلامي بما في ذلك شعراء المعارضة ضمن دائرة الابداع والمفاضلة .

2 . في قوله (كل شعرائكم محسن) كسر لطوق العصبية القبلية والفكرية، فضلًا عن أنَّه جعل شعر المرأة كشعر الرجل .

3 . في الفقرة الثانية، لم يجوّز المقايسة الاعتباطية بين عصر وعصر أو بين شاعر وشاعر من عصرين مختلفين ولم يجوّز المقارنة بين شاعرين انصرف كل منهما الى غرض خاص به أو موضوع مغاير في عصر واحد. إذ لا يمكن المقايسة بين غرضين مختلفين او بين شاعرين في عصرين متباينين .

4 . أما الفقرة الثالثة، أراد القول بالتخصيص فلكل شاعر حقله المفضل وغرضه المفضل به على أقرانه، ولكل شاعر قصيدة فذة أو بيت سائر، أراد بذلك ترضية المتخاصمين خوفا عليهم أن يترك هذا الجدال الأدبي بعض النعرة التي تؤدي الى تفتيت وحدة القبائل.

5 . أما الفقرة الرابعة فقد سمى الإمام (ﷺ) شاعره المفضل وأعطى مسوغات التفضيل، وهي الحرية التي يتمكن الشاعر عن طريقها القول من دون خوف أو عبودية (الطمع) فالشاعر لا يمكن أن يكون شاعرًا وهو يخشى القول ويخشى أن يفكر كما يمليه عليه العقل

وتمليه عليه العاطفة، وأنَّ الذي يقول ذلك وهو يشعر بالخوف فهو نصف عبد لا يمكن أن ينطق الا كما ينطق أنصاف العبيد.

تطبيقات الفصل الثاني

س1 / للإسلام موقف واضح من الشعر والشعراء، صف هذا الموقف من خلال النصوص التي نص عليها القران الكريم .

س2/ اتخذ الرسول محمد (ﷺ) المعيار الإيماني سبيلًا للحكم على الشعر، ناقش ذلك .

س3/ أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أنَّ الشعر علم العرب الصحيح، انطلق من هذا الفهم مبينًا آراء الخليفة النقدية تجاه الشعر والشعراء .

س4/ صف الموقف النقدي للإمام علي (كرم الله وجهه).

الفصل الثالث

النقد في عصر بني أُمية

إنَّ دراستنا للنقد في عصر بني أمية، يمكن أن نضعها في إطار البيئات الثلاث، إذ انمازت كلَّ بيئة بخصوصية نقدية بحسب القرب أو البعد من مركز السلطة، فضلاً عن طبيعة اهتمام النقاد. لذلك يمكننا أن نقسم البيئات النقدية في ظل الأمويين على النحو الآتي:

أولاً: بيئة الحجاز

تتمثل أهمية الحجاز في عصر صدر الإسلام بكونه خزانةً ضخمة للأموال التي جلبها القواد والأمراء، وتطورت هذه البيئة في عهد الأمويين فقامت فيها البيوت وانتشرت فيها الضِّياع وكثرت فيها الجواري، وظهر الغناء، فضلاً عن كون الحجاز مركزاً دينياً ليس لعرب الجزيرة فقط، بل للأجيال العربية الذين ولدوا في البلدان المفتوحة والأمصار الجديدة، إذ إنَّ آلافاً من الحجاج يردون إليها من عرب البلدان المفتوحة ومن الذين أسلموا من غير العرب .

كل ذلك انعكس على النقاد والشعراء الذين حاكوا هذه الطبيعة أو قل البيئة المترفة المطمئنة، الأمر الذي جعل الشعراء يميلون إلى القول العذب إلى الغزل، وذلك لحاجة الحجازيين إلى شعر يصور لهم عصرهم، ولعدم وجود ردود فعل مضادة لهذه التوجهات ازدهر هذا الشعر .

برزت في هذه البيئة النقدية شخصيتان نقديتان، هما ابن أبي عتيق، والسيدة سكينة بنت الحسين .

يحكى أنّ رجلاً أنشد شعراً للحارث بن خالد:

إنّي وما نَحرُوا غداةَ مِنًى عند الجِمار يؤودها العُقْلُ

لو بُدِّلت أعلى منازلهـــا سُفلاً وأصبح سُفلُها يَعلُو

فيكادُ يَعرِفها الخبيرُ بها فيردَّهُ الإقواءُ

والمحـــــلُ

فقال له ابن أبي عتيق:(يا ابن أخي، استر على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا، أما تطيَّر الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليَه سافِلَهُ " وما بقي إلا أن يسأل الله لها حجارةً من سجيل)

لذلك فضل أبياتاً لعمر بن أبي ربيعة على قول الحارث:

سائلاً الرَّبعَ بالبُليِّ وقُولا هِجتَ شوقاً لي الغداةَ طويلا

إنَّ ابن أبي عتيق يعكس ذوقه المترف، وعصره المرح السعيد ، لذا فهو ينظر من ذكر ما يؤذي ويذكر بالموت والدمار .

ويذكر المرزباني أنه: (أنشد كُثيِّر ابن أبي عتيق)

ولست براضٍ من خليل بنائلٍ قليلٍ ولا راضٍ له بقليل

فقال ابن أبي عتيق، هذا كلام مكافِئ، وليس بعاشق، القرشيان أصدق منك وأقنع، ابن أبي ربيعة، وابن قيس الرقيات ، قال عمر:

فعِدِي نائلاً وإن لم تُنِيلي ... إنّما يَنْفَعُ المحب الرجاءُ

وقال أيضًا :

ليتَ حَظِّي كَلَحْظَةِ العَينِ منها ... وكثِيرٌ منها القليلُ والمُهَنّا

وقال ابن قيس :

رقيّ بعمركم لا تهجرينا ... ومُنيّنا المنى ثم امطُلينا

عِدينا في غدٍ ما شئت إنّا ... نحبّ ولو مَطَلتِ الواعدينا

ويروي صاحب الأغاني أنَّه، شبب عمرُ بن أبي ربيعة بزينب بنت موسى من أبياته التي قالها:

لا تلوما في ال زينبَ إن الـ قلبَ رهنٌ بآلِ زينبَ عاني

فقال له ابن أبي عتيق:(أما قلبك فقد غُيِّب عنها، وأما لسانك فشاهد عليك)

أما السيدة سُكينة ، فقد استمدت النقد من روح القرآن وسنة النبي محمد "ﷺ". وقد حظيت المرأة في الإسلام بمكانة رفيعة تليق بها. إذ قال الرسول "ﷺ" ما أهان النساء الا لئيمٌ وما اكرمهنَّ الا كريم).

هذه القيمُ جميعها ترسخت في ذهن السيدة سكينة التي كانت تنقد الشعراء من وراء ستار او عن طريق جارية لها. فقد وقفت ضد الشعر المكشوف الذي يمتهن المرأة ويشهر بها، أو الذي خرج على قيم الإسلام وتعاليم دينه الحنيف .

فالمتأمل في آرائها يجد ذلك ماثلاً في تعليقاتها، يروي صاحب الموشح عن أحدهم من قوله " مررت بالمدينة فعجت إلى سكينة بنت الحسين لأسلم عليها، فألفيت على بابها الفرزدق، جرير، وكثير، وجميل، والناس مجتمعون عليهم. فخرجت جارية بيضاء، فقالت: أيكم الفرزدق؟ تقول مولاتي لك: أ أنت القائل:

هما دلَّتاني من ثَمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسرُهُ

قال: نعم، قالت: (فما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها، أفلا سترت على نفسك وعليها ؟).

في هذه اللمحة النقدية حاولت السيدة اخماد السلوك البدوي الذي تأصل في شعراء زمانها، والمتمثل بالتشهير بالمرأة وعدم المبالاة بها، ثم دخلت، وخرجت فقالت أيكم جرير؟ أ أنت القائل:

طرقتكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا حينَ الزيارةِ فارجعي بسلام

قال: نعم، قالت:(كيف جعلتها صائدةً لقلبك، حتى أناخت ببابك أفلا أخذت بيدها، ورحبت بها، وقلت فادخلي بسلام ! أنت رجل عفيف).

ثم دخلت وخرجت، فقالت أيكم كُثيِّر؟ أ أنت القائل:

أدمتِ لنا بالبخلِ منكِ ضريبةً فَليتَكِ ذو لونينِ يُعطي ويَمنعُ

قال: نعم، قالت:(ما جعلتها بخيلةً تُعرف بالبخل، ولا سخيةً تعرف بالسَّخاء).

ثم قالت: أيكم جميل؟ أ أنت القائل:

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودني بثينةُ لا يخفى عليَّ كلامُها

قال نعم، قالت: " أ فرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها أن تكون أعمى أصمَّ إلا أنه لا يخفى عليك كلام بثينة ! ..."

من ينعم النظر في أحكام السيدة سكينة، يجدها قد انصرفت الى مضمون الشعر، لا إلى شكله، فأبيات الفرزدق صوَّرته فاحشاً فاجراً، وهذا مفسدٌ لشعر الشاعر، وبيت جرير عبر عن تناقض في موقف الشاعر مما أظهره مدَّعيًا لا عاشقاً حقيقياً، وأبيات كُثيِّر لم تحدد موقفاً واضحاً لصاحبته ، وبيت جميل أظهره يُضحي بالنَّفيس من دون أن يحصل على طائل .

يروي صاحب الاغاني عن الشعبي (أنَّ الفرزدق خرج حاجاً، فلما قضى حجَّهُ عَدَل الى المدينة ، فذهب الى السيدة سكينة فسلَّم عليها من وراء الحجاب، فقالت له يا فرزدق مَن أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت أشعر منك الذي يقول :

بِنَفسيَ مَنْ تجنُّبُهُ عزيزٌ عليَّ ومَنْ زيارتُهُ لِمامُ

ومَنْ أُمسي وأُصبحَ لا أراه ويَطرقُنِي إذا هَجَعَ النِّيامُ

فقال: واللهِ لو أذنتِ لأسمعتُكِ أحسنَ منه .. ثم عاد إليها في الغد، فكررت القول عليه، فقال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك جرير أشعر منك عندما قال:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولزرتُ قبرَكِ والحبيب يزارُ

ثم عاد في اليوم الثالث فكررت عليه القول، فقال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك أشعر منك عندما قال:

إنَّ العيونَ التي في طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

يصرعنَ ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

<u>ثانياً</u> : بيئة الشام

يكاد يكون موقف الخليفة وولاته واحداً من الأدب والشعر، حين يتعلق الأمر لمخاطبة الطبقة الحاكمة الجديدة التي انتقلت من دور البداوة الى دور الحضارة ومن سكن البيوت المتواضعة من مكة أو الخيام في الصحراء إلى سكن القلاع والحصون والقصور .

فتحول البدوي البسيط الى حاكم وهذا يتطلب في الشعراء أن يغيروا من خطابهم لهذه الفئة الحاكمة على وفق ما يقتضيه الحال والمقام، إلا أن الشعراء الذين وقفوا بين أيدي آل أمية ظنوا أنَّ الدنيا لم تتغيَّر وأنَّ الزمان لم يتطور مما أوقع الشعراء في حرج في كثير من المواقف. من ذلك ما حدث بين جرير وبشر بن مروان عندما كلَّمه وكأنَّه يخاطب ابن عمٍّ له قائلاً:

قد كان حقُك أن تقولَ لبارقٍ يا آلَ بارقَ فيمَ سُبَّ جريرُ؟

فعلَّق بشر: " أما وجد ابنُ المراغة .. رسولاً غيري !"

وعلَّق الصولي: " وليس كذا يخاطب الامراء "

وكذلك عندما قال ليزيد بن عبدالملك:

هَذَا ابنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفةً ... لَو شِئْتُ سَاقَكُمُ إليَّ قِطِيناً

فعلَّق يزيد قائلاً: " أما ترون جهل جرير، يقول لي: ابن عمي، ثم يقول: لو شئت ساقكم، أما لو قال: لو شاء ساقَكم، لأصاب ولعلِّي كنت أفعل ".

ويقال إنَّ الوليد هو المعني بذلك، وأنَّه قال: أما والله لو قال: لو شاء ساقكم لفعلت، ولكنه: (لو شئت) فجعلني شرطياً

ويروى أنَّ عبد الملك بن مروان نعس مرةً في مجلسه، فقال للفرزدق وجرير والأخطل مَن وصف نعاساً بشعر وبمثل يصيب فيه، ويحسن التمثيل، فهذا الوصيفة له، فقال الفرزدق :

رماهُ الكرى في الرأسِ حتّى كأنَّه أميمُ جلاميدٍ تركنَ به وَقرا

فقال: شدختني ! ويلك يا فرزدق، فقال جرير:

رماه الكرى في الرأسِ حتى كانَّه يرى في سوادِ الليل قنُبرةً سقرا

فقال: ويلك تركتني مجنونًا، ثم قال الأخطل:

رماه الكرى في الرأسِ حتّى كأنّه نديمٌ تروّى بين ندمائهِ خمرا

قال أحسنت، خذ اليك الجارية.

وكان عبد الملك بن مروان من أوائل الذين اكدوا المدح بالفضائل النفسية والخلقية. ونفى قبول المدح الذي يعتمد على وصف المظهر والجمال، فعندما مدحه ابن قيس الرُّقيَّات:

يعتدلُ التاجُ فوق مفرقِهِ على جبينٍ كأنَّه الذَّهبُ

فقال عبد الملك: تقول لمصعب :

إنَّما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ تجلَّت عن وجهه الظلماءُ

وأما لي فتقول: على جبينٍ كأنَّه الذَّهبُ، وكأنّي من العجم.

وقد نبَّه عبدالملك الشعراء قائلاً: (يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرةً بالجبل الأوعر، ومرةً بالبحر الأُجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهارُكم مكابدةٌ وصومٌ ولَيْلُكُمُ صلاةٌ واقتراء !

وكذلك كان عبد الملك شديد الحساسية للكلمة، من ذلك لما أنشده الأخطل قوله :

" **خفَّ القطين فراحوا منك او بكروا** "

فقال عبد الملك: بل منك، وتطير من هذا القول، فعاد فقال:

فراحوا اليوم أو بكروا .

ولمعاوية بن أبي سفيان موقف صريح من الشعر، فهو القائل: (يجب على الرجل تأديب ولدِهِ ، والشعرُ أعلى مراتب الأدب)، ويروى أنَّه قال: (اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثرَ دأبكم) ويروى أنَّ أبياتًا لعمرو بن الإطنابة كانت سببًا في ثباته وتحمله البلاء الذي مر به.

وفي الأخبار أنَّه(دخل الحارث بن نوفل الى معاوية، فقال: ما علّمت ابنك؟ قال: القرآن والفرائض. فقال: روِّه من فصيح الشعر، فإنه يُفتِّح العقل، ويُفصح المنطق، ويُطلق اللسان، ويُدل على المروءة والشجاعة).

ويروى أنَّه قال يوما لجلسائه :(أخبروني بأشجع بيت وصَفَ به رجلٌ قومَه ، فقال له روح بن زنباع: قول كعب بن مالك:

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنا . . . قُدُماً ، ونَلحِقُها إذا لم تَلحقِ

فقال معاوية: صدقت.

ومن مواقفه النقدية تجاه الأغراض الشعرية، قوله لعبد الرحمن بن الحكم:(يا ابن أخي إنَّك شُهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء، فإنَّك تُعرِّ الشريفةَ في ثوبها، والعفيفة في نفسها، والهجاءَ فإنَّك لا تعدو أن تعادي كريمًا، أو تستثيرَ لئيمًا، ولكن افخر بمآثرِ قومِكَ، وقل من الأمثال ما توقّرُ به نفسك، وتُأدب به غيرك ... وإياك والمدح، فهو كسب الأنذال).

ويروى أنَّ الحجاج قال للفرزدق وجرير وبين يديه جارية، مَن مدحني منكما بشعر يوجز فيه ويحسن صفتي، فهذه الجارية له، فقال الفرزدق:

فمنَ يأمنُ الحجاجَ والطيرُ تتقي عقوبتَهُ إلا ضعيفُ العزائم

وقال جرير:

فَمنْ يأمن الحجاجَ، أما عقابُهُ فمرٌّ، وأما عهدهُ فوثيقُ

فقال الحجاج: "والطير تتقي عقوبته ، كلام لا خير فيه؛ لأن الطيرَ تتقي كلَّ شيء الثوب والصبي وغير ذلك، خذها يا جرير" .

<u>ثالثا</u> : بيئة العراق

يتكوَّن المجتمع العراقي من القبائل العربية النازحة وسكان البلاد وبقايا الفرس الذين استقروا بعد الفتح واختلطوا بالعرب، الأمر الذي أدى الى صراع لغوي نتج عنه اهتزاز في سلامة اللغة العربية، وقد أدى هذا إلى التفكير في البحث عن وسائل لمنع أي تدهور في مستوى اللغة العربية.

إنَّ قيام الدراسات القرآنية ونشاط الشعر والشعراء، كل ذلك أسهم في قيام حركة لغوية ونحوية نشطة في وقت مبكر من النصف الثاني من القرن الأول.

ولعلَّ الحركة النقدية التي كان أغلب قادتها من غير العرب كانت حركةً بنيت في الأساس على رصد الأخطاء التي وردت في شعر الشعراء العرب، وكان المصحح لها من اللغويين والنقاد الذين لا ينتسبون الى العرب.

ومن نماذج هذا النقد ما ورد من تعليق عبد الله بن إسحاق الحضرمي حول شعر الفرزدق في قوله:

مُستقبلينَ شمال الشَّام تضرِبهم بحاصبٍ كنديفِ القطنِ منثورِ

على عمائمنا تُلقى وأرحُلِنا على زواحفَ تُزجى مخّها (ريرِ)

واحتج عليه ابن أبي اسحاق، فقال: إنَّما هو (ريرُ) بالضم، وكذلك قياس النحو.

وحين احتج عليه عنبسة الفيل قال له:" ما يدريك يا ابن النبطية، ثم دخل قلبه منه شيء فغيَّره"، ومثل هذا قول الفرزدق:

وعضُّ زمانٍ يا ابن مروانَ لم يدعْ من المالِ إلا مُسحَتًا او مجلَّفُ

وسأله ابن أبي اسحاق على أيِّ شيء رفعتَ مجلفا؟ فقال: على ما يسوءُك وينوءُك عليَّ أن أقول وعليكم أن تؤولوا.

توجَّه النقاد أيضا الى التعقيد اللفظي عند ذي الرُّمة في قوله:

كأنَّ أصواتَ من أيغالهنَّ بنا أواخرِ الميسِ أصواتُ الفراريج

وهو يريد من ذلك (كأنَّ صوت أواخر الميس أصوات الفراريج من إيغالهن بنا)

كذلك ناقش النقاد في بيئة العراق مسألة السرقات الشعرية .

يقول أبو عمرو بن العلاء: (لقيت الفرزدق في المربد، فقلت يا أبا فراس أحدثت شيئاً ؟ فقال: خذ ثم أنشدني:

كم دُونَ مَيّةَ مِنْ مُسْتَعْمَلٍ قَذِفٍ ... وَمِنْ فَلاَةٍ بِهَا تُسْتَودَعُ العِيسُ

قال: فقلت: سبحان الله، هذا للمتلمس، فقال: اكتمها فَلَضَوالٌّ الشعر أحبُّ إليَّ من ضَوَالِّ الإبل.

وللفرزدق صولات في السرقة الشعرية، فقد استوقف ذا الرُّمة في الطريق، وقال له في أبيات: إياك أن يسمعها منك أحد فأنا أحق بها منك.

وأغار على شعر الشمردل اليربوعي مرة، وقال :(والله لتتركن هذا البيت أو لتتركن عرضك، فقال: خذه على كره منِّي لا بارك الله لك فيه)

وتكرر عدوان الفرزدق على الشعراء حتى اتهمه الأصمعي بأن يكون تسعة أعشار شعره سرقة، وفسر قول الاصمعي بأنَّ سببه تهجم الفرزدق على باهلة قوم الاصمعي .

ومن النقد المنطقي ما قيل عن بيت جرير:

صارَتْ حَنيفةُ أَثلاثًا فَثُلُثُهُمُ ... من العبيدِ وثلثٌ من مَوالِيها

قال المرزباني:(إنَّ جرير لما قال هذا البيت، قيل لرجل من بني حنيفة من أيهم أنت ؟ قال: أنا من الثلث الملغي)

كذلك كان للشعراء أنفسهم مواقف نقدية، فقد قيل لنُصيب (أخبرني عن أصحابك، فقال: جميل إمامُنا، وعمر أوصفنا لربات الحجال، وكُثيِّر أبكانا على الدِّمن، وأمدحنا للملوك، وأما أنا فقد قلت ما سمعت قلت: فَإِن النَّاس يَزْعمُونَ أَنَّك لَا تحسن أَن تهجو، قَالَ:

فأقروا لي أَنِّي أحسن المديح؟ قلت: نعم، قَالَ: أفترى لَا أحسن أَن أجعَل مَكَان عافك الله أخزاك الله؟)

ومن هذا القبيل أيضًا ما يقال إنَّ الأخطل سئل أيكم أشعر؟ قال: أنا أمدحهم للملوك وأنعتهم للخمر والحُمر، يعني النساء، وأما جرير فأنسبنا وأشببنا، وأما الفرزدق فأفخرنا.

النقد الأدبي عند اللغويين

للغويين والنحاة أثر في نشوء نقدهم اللغوي الذي تمثل في نقدهم الأدب والشعر منه على وجه الخصوص، وقد بدأت محاولاتهم النقدية في نهاية القرن الأول تمثلت أغلب ملاحظاتهم في رصد أخطاء الشعراء اللغوية بغية الحفاظ على سلامة اللغة العربية، فضلًا عن توجيه الشعراء وتنبيههم، ولعلَّ أبرز النقاد في هذا العصر يحيى بن يعمر، وعيسى بن عمر، وعبدالله بن اسحاق الحضرمي، وأبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد الفراهيدي، وخلف الأحمر، فهؤلاء تتبعوا العرب في كلامهم فضبطوا ألفاظهم وعرفوا مدلولاتها وحركاتها، ووضعوا الأسس الأولى لعلومها التي أصبح لكل علم قواعد ومصطلحات نمت بعد وازدهرت في دولة بني العباس .

هذه الحملة التي حمل اللغويون لواءها مرَّت بطورين :

الاول : استنكار الخطأ والسخرية من مرتكبيه .

الثاني : ظهور المقاييس والقواعد التي الزمت الشعراء بضرورة السير على منوالها .

ومن أمثلة هذا النقد ما عيب على الفرزدق في قوله:

غداة أحلَّت لابن أصرمَ طعنةٌ حُصينٌ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ

فقد أخذوا عليه رفع (الخمر) والأولى نصبها؛ لأنَّها معطوفة على (عبيطات) وإنَّما هي معطوفةٌ عليها وكأنَّ وجهها النصب، فكأنَّه أراد وحلَّت الخمر.

ومن الروايات ذات المنحى اللغوي، ما دار بين يحيى بن يعمر والحجاج عندما قال له: أتجدني ألحنُ؟ فقال يحيى الأمير أفصح من ذلك. فقال: عزمت عليك لتخبرني! فقال يحيى: نعم في قوله تعالى:(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ) فرفعت (أحبَّ) وهو منصوب، فغضب الحجاج، وقال لا تساكنني ببلد أنا فيه ونفاه الى خرسان .

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ (أصحاب النحو من أهل الكوفة والبصرة كانوا ينتقدون الألفاظ على الشعراء، ويتتبعون سقطاتهم ولم يخف عليهم من ذلك الا النبذ اليسيرة)

وكانت مجالس العلماء في العصر الاموي مكاناً خصباً ومناسبًا للحوار والتوجيه في القضايا النحوية واللغوية، فقد تابعوا الشعراء في أخطائهم وشكَّلت هذه المتابعةُ للشعراء رافدًا مهمًا من روافد التثقيف والتهذيب، وكذلك فإنَّ النقد النحوي واللغوي قد ساعد على تنقية اللغة الفصحى من الفساد الذي دخل إليها بسبب غفلة الشعراء وتأثرهم بما حولهم من لهجات عامية او لهجات قبلية .

يقول الأستاذ طه أحمد إبراهيم:" كان هؤلاء النحاة يتتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو أو وجوه الاشتقاق والأعاريض التي جاء الشعر عليها، وهذا الاستنباط يجرهم بالضرورة الى نقد الشعر لا من حيث عذوبته او رقته او جماله الفني بل من حيث مخالفته للأصول التي هداهم استقراؤهم إليها من إعراب أو وزن أو قافية، فاظهروا بعض ما وقع فيه شعراء الجاهلية من الخطأ في الصياغة، وما وقع فيه الاسلاميون" من ذلك أن عيسى بن عمر أخذ على النابغة أنَّه رفع (ناقع) في قوله :

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقش في أنيابِها السُّمُ ناقعُ

وكان حقه النصب على الحال، ولكن ابن هشام في المغني أيَّد قراءة النابغة على أنه خبر للسم أو خبر ثانٍ.

وكان الرواة والنحويون يجدون في شعر الفرزدق ما يستهويهم ويثر فيهم الجدل، وقد قيل: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة .

كما أخذوا على شعر الفرزدق تعقيد شعره في قوله:

ومَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلاّ مُمَلَّكاً ... أبُو أمَّهِ حَيٌّ أبوهُ يُقَارِبُهْ

هنا يمدح خال هشام بن عبدالملك إذ أراد: وما مثل ابراهيم في الناس حيٌّ يشبهه في فضائله الا مملكًا أبو أم ذلك الملك ويقصد بالملك هشاماً، أبو أم ذلك الملك أبو هذا الممدوح. لكنه قدَّم وأخَّر وفصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ و(أبوه) وهو خبر بأجنبي وهو (حيٌّ) وقدَّم المستثنى منه وهجَّن البيت.

وأصل الكلام: وما مثلُهُ في الناس حَيٌّ يقاربُه إلا مُملكًا أبُو أُمِّهِ أبوه.

ومن نماذج النقد اللغوي في هذا العصر نخرج الى أنَّ هذه الجهود قامت على أساسين: الاول: تنقية اللغة، والآخر: توثيق النصوص.

تطبيقات الفصل الثالث

س1/ صف الموقف النقدي لابن أبي عتيق تجاه الشعر والشعراء في عصر بني امية

س2/ اتخذت السيدة سكينة بنت الحسين(رضي الله عنها) المعيار الإيماني سبيلًا لنقدها. ناقش ذلك.

س3/ تعددت البيئات النقدية في عصر بني أمية، اذكرها ثم أوجز الحديث عن واحدة منها.

س4/ اتسم النقد في بيئة الشام بالطابع الرسمي، ناقش ذلك.

س5/ لم يكن النقد في بيئة العراق قائمًا على ابراز القيم الجمالية للشعر، بل قام على رصد أخطاء الشعراء اللغوية، ناقش ذلك .

طبقات فحول الشعراء

المنهج والمعايير النقدية

أولاً : ابن سلام ونظرية الطبقات

1ـ مفهوم الطبقة.

قبل كل شيء لابد لنا من التوقف قليلاً عند لفظة (طبقة) لبيان مدلولها اللغوي وتطور هذا المدلول.

جاء في اللسان (وطبقُ كلِّ شيء ما ساواه، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة).

هذه المساواة متحققة داخل الطبقة الواحدة التي تتألف منها؛ لأنَّ هذه العناصر أو الأشياء الداخلة في الطبقة تشترك في ميزات تجعلها في وضع متشابه.

إنَّ وجود طبقة يوحي بوجود طبقات أخرى متفاوتة معها. قال الزمخشري: (والناس طبقات منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض).

وردت لفظة "الطبقة " في القران الكريم كقوله تعالى :(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا) وقوله تعالى: (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ، لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) بمعنى أن تجعل الشيء فوق آخر بقدره .

أما في الحديث النبوي الشريف فقد وردت بمعنى الجيل في قوله (صلى الله عليه وسلم): " أمتي على خمس طبقات: كلُّ طبقة أربعون عامًا، فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وبيان، وأما الطبقة الثانية ما بين الأربعين إلى الثمانين فأهل بر وتقوى".

وجاءت بمعنى الحال في قوله (صلى الله عليه وسلم): " ألا إنَّ بني آدم خلقوا على طبقات شتى، منهم من يولد مؤمنًا، ويحيا مؤمنًا، ويموت مؤمنًا، ومنهم من يولد كافرًا، ويحيا كافرًا، ويموت كافرًا ومنهم من يولد مؤمنًا، ويحيا مؤمنًا، ويموت كافرًا، ومنهم من يولد كافرًا، ويحيا كافرًا، ويموت مؤمنًا".

وجاءت بمعنى الوعاء، وآلة الغناء، ورفعة الكتاب. وجاءت بمعنى المنهج أو المذهب، فقال أبو الحسن في كتابه: طبقات الحنابلة:" انتهى علم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى ستة نفر من الصحابة (رضي الله عنهم): عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب...، فهؤلاء طبقات الفقهاء، أما الرواة فستة نفر...، وأما طبقات

أصحاب الأخبار والقصص، فستة نفر، وأما طبقات خزان الكتب، فستة نفر، وأما طبقات الحفاظ، فستة نفر..."

2ـ فكرة الطَّبقة

تأثَّر الأدباء والنقاد تأثرًا سريعًا بطريقة علماء الحديث ومنهجهم الذين اعتمدوا على مقاييس الجرح والتعديل، وليس مستغربًا أن يعتمد الأدباء هذا المنهج، إذ إنَّ أكثرهم كانوا من رواة الحديث، ومنهم عروة بن أُذينة الذي قال فيه ابن سلام: (وكان شريفًا ثبتًا يُحمل عنه الحديث)، وكان ابن سلام نفسه راوية للأدب والحديث، وهذا جعله متأثرًا برجال الحديث، فاقتبس منهم هذه الطريقة وأضاف إليها من عنده ما جعلها بهذا الشكل.

إنَّ أقدم ما وصل إلينا من كتب الطبقات، كتاب (الطبقات الكبرى) لابن سعد (ت 230هـ) وكتاب طبقات ابن خياط (ت 240هـ)، إلا أنَّ هناك تأليف في طبقات المحدثين أقدم من طبقات ابن سعد غير أنَّها لم تصلنا كطبقات الواقدي.

لو تتبعنا المقاييس التي اعتمدها ابن سعد نجد الآتي:

1- الزمان، إذ خصص الجزأين الأولين من كتابه لسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم ترجم بعد ذلك لصحابته وللتابعين، أما فيما يتعلق بالصحابة، إذا ابتدأ بالمهاجرين والبدريين ثم بالأنصار البدريين، ثم من دخل الإسلام قديمًا، ولكنه لم يشهد بدراً.
2- المكان، إذ ترجم للصحابة على وفق أمصارهم التي قاموا فيها، فابتدأ بمن في المدينة، فمكة، فالطائف، فاليمن، فاليمامة.

ومما تجدر الاشارة إليه أنَّ هناك من ألفوا في الطبقات منهم: الهيثم بن عدي، فله كتاب (طبقات الفقهاء والمحدِّثين) وله أيضًا كتاب (طبقات من روى

عن النبي "صلى الله عليه وسلم" وأصحابه)، وكذلك واصل بن عطاء له كتاب (طبقات أهل العلم والجهل).

قامت فكرة التأليف في طبقات الشعراء عند الأدباء والنقاد على تقليد علماء الدين في طبقاتهم، فانتقلت هذه الفكرة من ميدان علم الحديث إلى الميدان الأدبي.

وآية ذلك ما فعله اللغويون عندما قارنوا بين شعراء الطبقتين الجاهلية والاسلام، فربط أبو عمرو بن العلاء بين جرير والأعشى، وبين الفرزدق وزهير، وبين النابغة والأخطل، إذ قالوا: (وكان الحذَّاق يقولون: الفحول في الجاهلية ثلاثة، وفي الإسلام ثلاثة متشابهون، زهير والفرزدق، والنابغة والأخطل، والأعشى وجرير".

لقد وصل اللغويون عن طريق ملاحظاتهم ومقارنتهم الى تفوق الشعراء الجاهليين الثلاثة، وبذلك قد حددوا مرة أخرى طبقة مميَّزة من الشعراء الجاهليين، بعد أن اهتدوا الى الطبقة الأولى من الاسلاميين، لذا يمكننا القول إنَّ اللغويين هم الذين طوَّروا فكرة الطبقات، واقتفوا أثر المحدِّثين في درجة الأخذ فعدّوا (أملى علينا) أرفع من (سمعتُ) و(سمعتُ) أعلى من (حدَّثني) و(حدَّثني) خيراً من (أخبرني) تمامًا كما فعل المحدِّثون.

(3) منهج ابن سلام

قال الأستاذ طه أحمد إبراهيم (رحمه الله) عنه أنَّه: (خلاصة ما قيل إلى عهده من أشعار الجاهلية والاسلام) ورأى الدكتور إحسان عباس (رحمه الله) أنَّه: إعادة صياغة للنظريات التي تلقاها ابن سلام عن أساتذته وتوسيعًا لبعض أفكار الأصمعي مثل فكرة (الفحولة)، ومهما يكن من شيء، فكتاب ابن سلَّام أول مؤلف نقدي موجود يستند إلى نظرية (الطبقات)، إذ اعتمد ابن سلام منهجية واضحة جعلت بعض مؤرخي النقد العربي يرون فيه أول ناقد متخصص يصدر عن منهج مستقيم وروح علمية.

والملاحظ أنَّ ابن سلام قد تأثَّر بأبي عُبيدة الذي ألف كتابًا في الطبقات أشارت إليه مصادر الأدب. إذ اتفق الاثنان على عدم الاعتراف بطبقة المخضرمين، اذ وضعا الحطيئة في طبقات الشعراء الجاهليين، وحسان بن ثابت في طبقة شعراء القرى العربية، والخنساء في طبقة أصحاب المراثي، وكعب بن جعيل، وعمرو بن أحمر الباهلي، وسحيم بن وثيل وهم مخضرمون في الطبقة الثالثة من الاسلاميين...الخ.

والملاحظ أيضا في طبقات أبي عبيدة – كما ترويها المصادر القديمة – أنَّه وضع في كلٍّ من الطبقة الأولى والثانية من الجاهلية أربعة شعراء، وهذا ما فعله ابن سلَّام مع اختلاف بسيط في ترتيب الشعراء، إلا أنَّ أبا عبيدة وضع اثني عشر شاعرًا في الطبقة الثالثة.

منهجه في توزيع الشعراء

وزع ابن سلام أربعين شاعرًا جاهليًّا على عشر طبقات في كل طبقة أربعة شعراء، وتلا ذلك مجموعة من الشعراء يبلغ تعدادهم أربعة وثلاثين شاعرًا وزَّعهم على طبقتين، واحدة سمَّاها (أصحاب المراثي)، وعددهم أربعة شعراء، وأخرى سمَّاها طبقة (شعراء القرى العربية) خمسة من شعراء المدينة، وتسعة من شعراء مكة وخمسة من الطائف، وثلاثة من شعراء البحرين، وثمانية من شعراء اليهود.

أما الاسلاميون فقد اختار منهم أربعين شاعرًا، وزعهم على عشر طبقات في كلٍّ طبقة أربعة شعراء، وقد خصص الطبقة التاسعة بالرجاز، وبذلك يكون مجموع من ترجم لهم مائة وأربعة عشر شاعرًا.

المقاييس النقدية

استند ابن سلام في توزيع الشعراء على طبقات على مجموعة من المعايير والمقاييس النقدية والتي يمكن إجمالها بالآتي:

1-الزمان

فالمتأمل في طبقات ابن سلام يجد الزمن حاضرًا في توزيعه الشعراء على طبقات، إذ بدأ بشعراء ما قبل الاسلام بمعزل عن الاسلاميين؛ لأنَّهم يشكِّلون حقبة أدبية متميزة في اسلوب حياتها ولغتها وشعرها. ويدخل ضمن هذا المعيار (الجودة) وإلا ما الذي يجعل امرأ القيس الاول في طبقته، أو يضع مجموعة في طبقته، وأخرى في طبقة ثانية.

2-الكم الشعري

يعد الكم الشعري معيارًا اعتمده ابن سلام في طبقاته، فالملاحظ أنَّه وضع حسان بن ثابت الأول في طبقته على شعراء المدينة الخمسة؛ لأنَّه كثير الشعر جيده، ومما أخَّر شعراء الطبقة التاسعة الجاهلية؛ لأنَّ "في أشعارهم قلَّة فذلك الذي أخرهم " وجعل الأسود بن يعفر الثالث في الطبقة الجاهلية الخامسة؛ لأنَّ " له واحدة طويلة رائعةً لاحقةً بأول الشعر، لو كان شفعها بمثلها قدَّمناه على أهل مرتبته".

3-الإبداع والجدَّة والسبق:

لذلك أجمع النقاد على أولوية امرئ القيس؛ لأنَّه أول من استوقف الصحب وأبكى الدِّيار، وقيَّد الأوابد، وأول من شبَّه النساء بالظباء، والبيض والخيل والعِقبان، ومن أسباب تفضيل زهير؛ لأنَّه أجمع الشعراء لكثير من المعاني في قليل من اللفظ وأشدهم شاعرية.

4- تنوع الأغراض

يعد التنوّع في الأغراض معيارا عنى به ابن سلام في توزيعه الشعراء على طبقات، فقد رأى الدارسون أنَّ الأعشى "أذهبهم في فنون الشعر" إذ قال عنه ابن سلام: " لم يكن له مع ذلك بيت نادر على أفواه الناس كأبيات أصحابه إلا أنَّ تعدد أغراضه وقدرته على النَّظم في الأغراض جميعها هو مكَّنه من أن يحتلَّ مكانته ضمن هذه الطبقة".

وقال عنه أبو حاتم؛ لأنَّه " قد قال في كلِّ عروض وركب كلَّ قافية "، وقال أبو عبيدة: " من قدَّم الأعشى يحتج بكثرة طواله الجياد، وتصرفه في المديح والهجاء وسائر فنون الشعر وليس ذلك لغيره".

وكان جرير: " يحسن ضروبًا من الشعر لا يحسنها الفرزدق "، وكان لتفوق الشاعر في غرض واحد ما يدعو الى تفضيله على غيره، وعلى هذا كان جرير يغلب في الفخر، وجميل مقدَّمًا على كُثيِّر في النسيب، والأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر.

ورأى بعض الدارسين أنَّ تقديم الكثرة على الجودة، وتنوع الأغراض على الاقتصار على غرض واحد، يعدُّ دليلًا على اضطراب المقاييس. وقد يكون ذلك صحيحًا إذا أدركنا أنَّ ابن سلَّام اعتمد الغرض الواحد معيارًا لوضع مجموعة من الشعراء في طبقة مستقلة وهم: أصحاب المراثي، و"الرجاز " وأنَّه نظر في شعر جميل وكُثير وهما من الغزليين؛ لكنَّه أهمل عمر بن أبي ربيعة لكونه شاعر غزل حسي، اما صاحباه فهما من شعراء الغزل العذري .

5-**المكان:** قسَّم ابن سلام الشعراء إلى شعراء وَبَر (بدو) وشعراء مَدَر (حضر) وجعل شعراء البادية في إحدى عشرة طبقة، خصص الطبقة الحادية عشرة منها لأصحاب المراثي، ثم نظر في شعراء الحضر فوجدهم يتركزون في خمس قرى حصرها ابن سلام بقوله: (وهي خمس: المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة، والبحرين).

6-**الموضوع الشعري** : تنبَّه ابن سلَّام إلى مسألة الغرض الشعري، لذلك جعل أصحاب المراثي في طبقة واحدة. قال: (وصيَّرنا أصحاب المراثي طبقة)، وهذا لا يعني أنَّ هؤلاء الشعراء قد اقتصروا على موضوع الرثاء، وإنما نظموا في معظم الموضوعات، ولكن الذي غلب عليهم شعر الرثاء. وقد بلغ تقدير

الاصمعي لقصائد الرثاء أن أدرج كعب بن سعد الغنوي في طبقة الفحول لمرثيته الرائعة .

7-**الدين:** يبرز الدين بوصفه مقياسًا نقديًا عند ابن سلام، لذلك خصص طبقة للشعراء اليهود الذين تكوَّن عددهم ثمانية شعراء من مشهوري شعرائهم.

المآخذ على نظريته

1-أنَّه لم يفرد طبقة للمسيحيين، علمًا أنَّهم كانوا منتشرين في جنوب الجزيرة العربية.

2-إنَّ تقديم الكثرة على الجودة، والتنوع على الاقتصار على ضرب واحد، يعدُّ اضطرابًا في المقاييس.

3-لا يمكن فك الشراكة بين الإبداع الشعري والجودة والمقاييس الأخرى؛ لأنَّ الشاعر قد يكون كثير الشعر، لكنه لم يحتكم على الإجادة فيها، وقد يكون مقتصرًا على غرض فيكون ذا جودة.

4-أغفل ابن سلَّام ذكر شعراء اسلاميين وامويين كبار مثل الكُميت، والطِرمّاح، وعمر بن أبي ربيعة.

5-أغفل ابن سلَّام ذكر معاصرين له، ولم يعرِّف بطبقة الشعراء المحدثين على الرغم من أنَّه عاصر بعضًا منهم مثل بشار، ومروان بن أبي حفصة، وأبي نواس، وأبي العتاهية، والعبَّاس بن الأحنف، ولعلَّ إهماله المحدثين ناشئ عن عصبية للقديم.

6-لم يتعرض لمكانه شعراء القرى العربية، كما أنَّه لم يورد أخبارًا أو قدَّم تحليلًا لبعض الشعراء بل اكتفى بسرد الأسماء.

7-أنَّ ملكة ابن سلَّام الأدبية في التحليل لا تكاد تظهر.

8-أنَّ ابن سلَّام جعل الراعي النميري مع الفرزدق وجرير والأخطل من دون حجة مقنعة.

موقف ابن سلَّام من الشعراء المنحول

لاحظ ابن سلام وهو يترجم للشعراء في طبقاته قلَّة في شعر بعضهم وزيادة في شعر آخرين. وأورد روايات على هذا، فقال عن قُراد بن حنش إنَّه جيد الشعر قليله، وكان شعراء غطفان يغيرون على شعره فيأخذونه، ومنهم زهير بن أبي سلمى.

وقال عن حسان: (وقد حصل عليه ما لم يحصل على أحد ووضعوا أشعارًا لا تليق به) .

وينسب إلى أبي عمرو بن العلاء قوله:(ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير ". وقال ابن سلَّام عن عبيد بن الأبرص: " وعبيد بن الأبرص قديم عظيم الشهرة، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله: (أقفر من أهله ملحوب).

وما أدري ما بعد ذلك، فإذا كان شاعرًا كبيرًا مثل عبيد ذهب أكثر شعره، فما بالك بالآخرين، وعندما جاء الاسلام فتشاغلت عن الشعر وروايته، وعندما اطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر. فلم يؤولوا إلى ديوان مدوَّن ولا كتاب مكتوب، وقد هلك من العرب من هلك فحفظوا أقل ذلك، وذهب عنهم أكثره، وعلل ابن سلَّام الأسباب على النحو الآتي:

1- أنَّه لم يكن للعرب ديوان مدوَّن ولا كتاب مكتوب عدا ما قيل إنَّ للنعمان بن المنذر ديوان أشعار الفحول، وما مدح به هو وأهل بيته. وقد صار هذا الديوان إلى بني مروان.
2- أنَّ حملة الشعر وحفَّاظه قد هلكوا وضاع معهم شعر كثير.
3- أنَّ بعض العشائر التي لم تذكر أيامها ووقائعها، فقالو شعرًا على ألسنة شعرائهم ليلحقوا بالقبائل الأخرى، وقد زاد الرواة في الأشعار.
4- عامل الرواة، يقول ابن سلام: (وكان حماد الراوية أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها، وكان غير موثوق به ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار).

5-كان لمحمد بن إسحاق نصيب من هذا الشعر المنحول، فكان يورد في كتاب السيرة أشعاراً غثَّة غير موزونة ولم ينسبها لأحد، وكان يقول:(لا علم لي بالشعر) إنَّما أوتي به فأحمله، وأورد أشعارًا لرجال لم يقولوا شعرًا قط، وأشعارًا لنساء، وجاوز ذلك بأنَّه أورد أشعارًا لعاد وثمود، أفلا يرجع إلى نفسه، فيقول من حمل هذا الشعر ومن أدّاه منذ آلاف السنين؟ والله يقول: (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى) وقال في عاد: (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

ومما يبطل ذلك الآتي :

1-دليل نقلي: وهو ما جاء عن عاد وثمود في القرآن الكريم.

2-دليل لغوي: وهو أنَّ اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد، وأول من تكلم العربية إسماعيل بن إبراهيم، ثم أنَّ عادًا من اليمن، واليمن لسانهم غير لساننا، ويستند في ذلك إلى قول أبي عمرو بن العلاء: (وما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا)

3-دليل أدبي: وهو أنَّ القصيدة قصِّدت وطوِّل الشعر في عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبد مناف، وأول من قصَّد القصيد وذكر الوقائع المهلهل .

الفكر النقدي عند الجاحظ

تعريف بالجاحظ:

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (160 هـ – 255 هـ) أشهر أدباء القرن الثالث الهجري وأغزرهم نتاجًا، ألَّف كتبًا ورسائل في مجالات شتى فكرية وأدبية واجتماعية، كان أديبًا موسوعيًا نهل الثقافة العربية القديمة. مال في نتاجه الى العقل الذي يعدُّ وسيلةً في الإقناع والمجادلة، فمنهج الجاحظ هو منهج المعتزلة، لكنه ميز علماءها بأسلوبه الأدبي الجميل وعباراته الفصيحة الرصينة، وطريقة عرضه للقضايا الأدبية، مما جعل مؤلفاته قريبةً من العامة والخاصة. انماز أسلوبه في الكتابة بميزتين، أولهما: الاستطراد، ثانيهما: مزج الجد بالهزل.

أولاً: الناقد من وجهة نظره

فيما يتعلق بموقفه من الناقد، فقد وردت إشارة في كتاب العمدة، تفيد أنَّ الجاحظ حدد مستلزمات الناقد عندما تحدَّث عن الأدباء والكتَّاب قائلًا: (طلبت الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت الى الأخفش، فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلَّق بالأيام، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتَّاب كالحسن بن وهب، ومحمد بن عبدالملك الزيات).

فتقدير الجاحظ لهم ليس لتفننهم في الصياغة والتعبير، بل حديثه عن إحاطتهم بالعلوم المتعلقة بالشعر لغته وغريبه وإعرابه، وتاريخ الشعر وقبائلهم، فهذه كلُّها متوفرة عند الكتَّاب، وهم الذين وجد عندهم علم الشعر، وهم المؤهلون إذن للنقد، فعندما بحث عن علم الشعر عند العلماء الآخرين لم يجد ضالته، فالأصمعي في علم اللغة، وأبو عبيدة في أخبار الشعراء وقبائلهم، والأخفش في اللغة وإعرابها، وهذه العلوم لا تؤهل صاحبها للنقد، وأما الأدباء فقد جمعوا في ثقافتهم كل علوم الشعر ومعانيه، فضلًا عن الإلمام بجوهر الشعر وتذوقه وتحسس مواطن الجمال

فيه كالطبع المتمكن أو السبك الجيِّد والديباجة الكريمة وحسن المعاني وكل ما يتعلق بالنص الشعري.

ثانيا / موقفه من الألفاظ والمعاني

يعدُّ الجاحظ من أوائل من لفت الانتباه إلى البحث عن سرِّ الإجادة في النص الأدبي، فأخذ يطرح تساؤلات عن مواطن الجودة هل هي في الألفاظ أم في المعاني، فقال:(المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنَّما الشأن في إقامة الوزن وتخيِّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير). لقد توهَّم كثير من الباحثين في فهم رأي الجاحظ هذا مكتفين بالجملة الأولى من كلامه (المعاني مطروحة) ليستنتجوا أنَّ الجاحظ من أنصار اللفظ على المعاني، وأنَّه شكَّل مدرسة نقدية كان من آثارها أبو هلال العسكري.

وهذا الدكتور بدوي طبانة يصنف رأي الجاحظ قائلًا: (إنَّ هذا الشطط الذي لم يقده إليه إلا تعلقه بمذهب الصنعة هذا التعلق الذي أعماه عن تقدير المعنى، وليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي).

رأى باحثون أنَّ الجاحظ لم يعن بالألفاظ مفردة، وإنما عنى بالصياغة والأسلوب، وأنَّه أول من نادى بهذا المذهب مذهب الصنعة والافتتان بالصياغة. وخلص الدكتور العشماوي إلى أنَّ عبارة الجاحظ (على شهرتها وكثرة تداولها، بل وتأثيرها الشديد فيمن جاؤوا بعده من نقاد فيها غموض واضح، فهي لم تحدد التحديد الصحيح لمفهوم المعنى عند الجاحظ، وفصلت تفصيلًا عامًا بين المعنى واللفظ)

المتأمل جيدًا في مقولة الجاحظ، يتبادر إلى ذهنه أنَّه من أنصار اللفظ على المعنى، إلا أنَّ آراءه الأخرى تدلنا على أنَّه لم يكن من أنصار الألفاظ على المعاني، ولا من الذين عنوا بالصياغة والأسلوب فحسب، كما أنَّه لم يفصل بين الألفاظ والمعاني بتحديد مفهوم المعنى عنده، بل عنى بالنص الأدبي بكل ما يحمله

من معان عبَّر عنها بألفاظ وأساليب وأوزان. فالنص الأدبي الجيِّد هو ما كانت أفكاره ومعانيه جيدة مقبولة في النفس، وكان أسلوبه جميلًا مؤثرًا، وإذا انفرد بإحدى هاتين الميزتين من دون الأخرى أصابه الخلل وخرج عن إطار النجاح الفني – وآية ذلك– أنَّ الجاحظ أراد بقوله: "المعاني مطروحة في الطريق " إلفات الانتباه الى أنَّ النظر الى ما يحمله البيت الشعري من حكمةٍ أو موعظةٍ والاكتفاء بها لتقويم البيت هو نظر قاصر؛ لأنَّه يريد للمعنى الجيِّد أن يخرج بإطار أدبي جميل مؤثر، بدليل ما بدر منه عندما استهجن بيتين من الشعر نالا إعجاب أبي عمرو الشيباني قائلًا: " وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرًا أبدًا والبيتان هما:

لا تَحْسَبَنَّ المَوْتَ مَوْتَ البِلَى ... وإنّما الموتُ سُؤالُ الرِّجال

كِلاهمَا مَوتٌ، ولكنَّ ذَا ... أشدُّ مِنْ ذاكَ لِذُلِّ السُّؤالْ

وذكر رأيه بعد هذين البيتين مدرجًا عناصر النص الأدبي، بما يمكن أن نختصره بالآتي:

1–إقامة الوزن: أي اختيار الأوزان المناسبة للمعاني المطروحة.

2–تخيّر اللفظ وسهولة المخرج.

3–كثرة الماء وصحة الطبع: ويريد بهما ابتعاد الشعراء عن الجفاف والافتعال المصطنع.

قرن الجاحظ هذه العناصر الثلاثة معًا في أكثر من موضوع في كتبه، فقال: " فإن كان المعنى شريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة..."

إنَّ تشبيه تأثير النص في نفس المستمع المتذوق للأدب بتأثير المطر إذا أصاب تربةً كريمةً تشبيه يدلك على إدراك الجاحظ لأهمية الطبع والموهبة في عملية الإبداع الفني من ناحية، ويشير الى التفاتته الى نفسية المستمع الذي يجب

أن يكون مؤهلًا لفهم النص وتقديره فيلقى في نفسه قبولاً واستحساناً وإلا فإنَّه يكون كالتربة الميتة لا يجدي فيها هطول المطر.

وقال في مواطن آخر: " والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة وألبست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زينت وعلى حسب ما زخرفت... فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني وفي الاقتصاد بلاغ وفي التوسط مجانبة الوعورة".

نخلص إلى القول إنَّ الجاحظ لم يعن بالألفاظ من دون المعاني، بل أراد تنبيه الشعراء إلى ضرورة إضفاء الصبغة الجمالية إلى أشعارهم وأن لا يجعلوها جافةً مفتقرةً على أوصاف محددة، بل يتوجب أن تكون مستوفية الفكرة لها تأثيرها في المتلقي.

ثالثا: شروط الالفاظ والمعاني

المتأمل في كتاب" البيان والتبيين" يجد الجاحظ قد حدد شروطًا للألفاظ، إذ جعل بلاغة اللفظ مقابلة لشرف المعنى، لذا أوجب أن يكون اللفظ الجيِّد شيقاً عذباً وفخماً وسهلاً.

وقال:(وكما لا ينبغي أن يكون عامياً وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون وحشياً).

وقد أكثر من التنبيه على وجوب تجنب الوحشي من الكلام أو الحُوشي منه، لذلك قال إبراهيم بن المهدي لكاتبه عبدالله بن صاعد: (إياك وتتبع وحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإنَّ ذلك هو العيُّ الأكبر، وعليك بالسهل مع تجنب السفل)

كما حدد شروط فصاحة الكلام، ألا يكون غريباً، فإذا تعمَّد المتكلم إيراد الغريب، فذلك هو التشادق، كذلك تجنب الفأفأة، والقرقرة، كما أن تجنب الغريب لا يعني استعمال السوقي.

كما أوصى الجاحظ عدم التكلف في الألفاظ، بل التوسط، ففي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبة الوعورة.

واستشهد بقول الشاعر:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرٍ ... وليسَ قربَ قبرِ حَربٍ قبرُ

لذلك رأى الجاحظ: (أنَّ أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنَّه قد أُفرغ افراغًا واحداً وسبك سبكاً واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان وأجزاء البيت ... وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان ... والأخرى تراها سهلة رطبة مواتية سلسلة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنَّ البيت بأسره كلمة واحدة).

ورأى الجاحظ أن يكون الخطاب موافقاً لمقام المخاطب، لذا فإنَّ الألفاظ التي يخاطب بها المتكلمون هي غير الألفاظ التي يخاطب بها التجار والعوام، كما أنَّ الالفاظ التي يخاطب بها أهل المدينة هي غير الالفاظ التي يخاطب بها أهل البادية، لكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل، لذا قال: (الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من النَّاس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح، والحسن، والقبيح والسمج، والخفيف، والثقيل، وكلُّه عربي، وبكلّ قد تكلموا، وبكلّ قد تمادحوا وتعايبوا).

كما أكد الجاحظ أنَّ هناك ضروبًا للألفاظ والمعاني تختلف بحسب حال الخطاب ولكلِّ (ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلِّ نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية).

رابعا: موقفه من القديم والمحدث

لم يكن الجاحظ متعصباً لقديم لقدمه أو لحديث لحداثته، بل نظر الى الصنفين نظرةً وسطيةً؛ ولكنه ميَّز بين شعر الأعراب والمولدين، فرأى أنَّ عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة.

أراد القول إنَّ العرب قد امتلكوا الشاعرية بطبعهم وسجيتهم؛ لأنهم ولدوا في بيئة خصبة بلغتها ومفرداتها وأخيلتها من دون حاجة إلى تعلم واكتساب، ولكنه في الوقت نفسه لم يرتض للنقاد الذين أنكروا الشعر المحدث قائلاً: (وقد رأيت اناسًا منهم يبهرجون أشعار المولودين ويستسقطون من رواها، ولم أر قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيِّد ممن كان وفي أيِّ زمان كان).

وقد تمثَّل الجاحظ أشعار الجاهليين والاسلاميين والمولدين، فلم تأخذه العصبية في الحكم، بل حكَّم الموضوعية في نظرته إلى الشعر، فعندما تحدَّث عن شعر بشار، قال:(كان شاعرًا راجزًا وسجَّاعًا خطيبًا ...) ثم قال: (والمطبوعين على الشعر من المولدين بشار، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة ...).

وقد فضَّل الجاحظ بشاراً على المولدين في قوله: (وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب من بشار، وابن هرمة). وعندما ناظر بشار حماد عجرد، لم يرتض الجاحظ هذه المناظرة؛ لأنَّ حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيوق، وليس في الأرض مولد قروي يُعد شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه).

وما يدلل على إعجاب الجاحظ ببشار، المفاضلة التي أجراها بين قول بشار:

كأنّ مُثارَ النَّقعِ فوقَ رُؤوسِنا ... وأسيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كواكبُهْ

وقول كلثوم بن عمرو العتابي:

تَبْنى سَنابِكُهم مِنْ فوْقِ أرْؤُسِهِمْ ... سَقْفاً كَوَاكِبُهُ البِيضُ المَبَاتِيرُ

علَّق مفضلاً قول بشار: (وهذا المعنى قد غلب عليه بشار) والموقف نفسه من أبي نواس، إذ جعله في مرحلة تالية لبشار من ناحية الإجادة والبراعة في التصوير.

إذ فضَّل أبياتاً لأبي نواس على أبيات لمهلهل بن ربيعة. ومع ذلك فإنَّ الجاحظ قد أشار إلى مساوئ أبي نواس في مبالغاته وضعف عقيدته. إذ انطلق الجاحظ في موقفه النقدي من مقياس الجودة والإبداع من دون الركون إلى الهوى الشخصي في تفضيل القديم على المحدث؛ لأنَّ الجيِّد من الأشعار موجود في كل زمان ومكان

ابن قتيبة وقضية الصراع بين القديم والحديث

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ولد في الكوفة، وتولى منصب القضاء في الدَّينور، فنسب إليها، سكن بغداد شطراً من حياته كان ثقةً ديّناً عالماً باللغة، والأدب، والنحو، ومعاني القرآن، والحديث وغريبهما.

ذكر له صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتاباً. توفي سنة (276 هـ).

كتابه " الشعر والشعراء"

بيَّن ابن قتيبة في المقدمة مادة كتابه قائلاً: " هذا الكتاب ألفته في الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء، وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يُعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمَّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، وما سبق إليه المتقدمون وأخذَهُ عنهم المتأخرون، وأَخبرت عن أقسام الشعر وطبقاته ..."

القضايا التي ناقشها:

1-تتسم رؤية ابن قتيبة في هذا الشأن بثنائية تفصل الشكل عن المضمون في فن الشعر، وترى لكلٍّ منهما ضرباً خاصاً من الجماليات، وجملة القول في هذا الأمر إنَّ ابن قتيبة أعمل ثقافته النقدية في الشعر، فرأى أنَّ الشعر على أربعة أضرب من جهة توافر الجودة في لفظه ومعناه، وهي على النحو الآتي:

1-ضرب منه حسن لفظُه وجاد معناه، من مثل قول الفرزدق:

في كفه خيزرانٌ ريحُهُ عَبِقٌ من كَفِّ أروعَ في عِرْنينهِ شَمَمُ

يُغضي حياءً ويُغضى من مهابته فما يُكلَّمُ إلا حينَ يَبتَسِمُ

علَّق ابن قتيبة قائلا: " لم يُقل في الهيبة شيءٌ أحسن منه"

ومن ذلك قول أوس بن حجر:

أيَّتُها النَّفسُ أجملي جَزَعَا إنَّ الذي تحذرين قد وقعا

فقال: " لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا".

وقول أبي ذؤيب:

والنَّفْسُ راغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَها ... وإِذَا تُرَدُّ إِلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وقول حميد بن ثور:

أرى بصري قد رابَني بعدَ صِحَّةٍ وحَسبُكَ داءً أن تصحَّ وتسلما

علَّق قائلاً: " ولم يُقل في الكِبَر شيء أحسن منه ".

وقول النابغة:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيء الكواكبِ

2- ضرب منه حسن لفظُه وحلا، فإذا أنت فتشتَه لم تجد هناك فائدة في المعنى، من مثل قول الشاعر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنىً كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بالأَرْكانِ مَنْ هُو مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارى رِحَالُنا ... وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الأَبَاطِحُ

وقف ابن قتيبة موقفاً مستهجنًا تجاه هذه الأبيات لأنَّه وجد معانيها تفتقر الى الإيحاء أو الفكرة المفيدة، وقد تأتى هذا الحكم عندما نثر الأبيات (ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاءَ، ومضى الناسُ لا ينظر الغادي الرائحَ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح).

أما النقاد المحدثون، فقد وقفوا موقفًا مغايراً من حكم ابن قتيبة، فهذه الدكتورة ابتسام الصفار، تقول: " إنَّ تعليق ابن قتيبة السابق على الأبيات يدلنا على رفضه لهذا النوع من الأشعار الرقيقة، وعدَّها وعدتها بالمرتبة الثانية من الأشعار التي يُرى فيها جمالاً في اختيار الألفاظ من دون المعنى".

أما الدكتور داود سلوم، فرأى أنَّ ابن قتيبة قد بالغ في النظرة الانفصالية الى اللفظ والمعنى، لأنَّه فكك الأبيات مما جعل الصورة فاقدة لجمالها، فضلاً عن أنَّه وجد تقريرية واضحة في المعاني التي انطوت عليها الأبيات .

أما موقف النقاد القدماء، فيمكن إجماله بالآتي:

عدَّ قدامة بن جعفر الأبيات السابقة أنموذجاً للأشعار التي توافرت فيها شروط إجادة الألفاظ من سهولة وسماحة، وسهولة مخارج الحروف، والفصاحة والخلو من البشاعة.

أما أبو هلال العسكري، فقد وصف الأبيات بجودة المطالع وحسن المقاطع وبديع المبادئ وغريب المباني. واكتفى ببيان فضل هذه الألفاظ من دون محاولة الانتباه إلى المعنى وجمال إيراده.

أما ابن جنى، فقد أفرد في خصائصه باباً ردَّ فيه على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني، فرأى أنَّ العرب حين أولت عنايتها بالألفاظ، فلأنَّها عنوان معانيها وطريقها الى إظهار أغراضها ومراميها، فأصلحوها ورتبوها وبالغو في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك أوقعَ لها في السَّمع وأذهب بها في الدلالة.

عليه، فقد تأمَّل هذه الأبيات، وبيَّن أنَّ من عابها يفتقر الى البصيرة في الشعر وجفاء الطبع، ويمكن إجمال رؤيته بالآتي:

أ) إنَّ قوله:" كل حاجة ..." يفيد منه أهل النسيب والرقة، لأنَّها توحي بأمور كثيرة منها التلاقي والتشاكي والتحلي، وجاء الشطر الثاني "ومسح بالأركان ..." ليبين أنَّ الحوائج التي قضيت والآداب التي تمت هي من ضمن الحاجات الواجب انجازها.

ب)وقوله: "اخذها بأطراف الأحاديث" هنا يتعجب ممن عاب البيت؛ لأنَّ الشاعر كان دقيقًا في اختيار الألفاظ ودلالتها. ففي قوله: "أطراف الأحاديث" إيحاء ورمز إلى ما

يتعاطاه المحبون من التعريض والتلويح والإيماء من دون التصريح. وذلك أحلى وأغزل وآنس من أن يكون مشافهة وكشفاً ومصارحة وجهراً.

ج) وقوله: " وسالت بأعناق المطي " فيه من الفصاحة الموجبة للاستحسان.

أما عبد القاهر الجرجاني، فيرى جمالية الأبيات تكمن بالآتي:

1-قوله: " ولما قضينا من منى " عبر فيه الشاعر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها، ثم نبَّه بقوله: " ومسَّح بالأركان" على طواف الوداع الذي يعد آخر الأمر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر.

2-قوله: " أخذنا بأطراف الأحاديث " ينطوي على استعارة بديعة، اذ وجد فيه علاقة بينه والقول السابق " ومسَّح بالأركان " وما فيه من زمِّ الركاب وركوب الركبان؛ لأنَّ عودة الحجيج مقترنةٌ بالانتهاء من آخر مناسك الحج، وهو مسح الأركان. أما لقطة "الأطراف" فهي تدل على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث. كما فهم عبد القاهر من تبادل أطراف الحديث جوّاً نفسياً مريحاً، يمكن إجماله بالآتي:

- ما توحيه أُلفة الأصحاب وأنسة الأحباب.
- ما يليق بحال من وفِّق لقضاء العبادة.
- تنسم روائح الأحبة والأوطان.
- تخيل استماع التهاني والتحايا من الخلان والإخوان.

3-وقوله:" سالت بأعناق ..." أنَّ الشاعر قد زان الجو النفسي باستعارة لطيفة.

إذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، ثم قال: " بأعناق المطي" ولم يقل: "المطي" لأنَّ السرعة والبطء يظهران غالبًا في أعناقها.

3-ضرب جاد معناه وقَصُرت ألفاظه عنه، من مثل قول لبيد:

ما عاتبَ المرءُ الكريمُ كنفسهِ والمرءُ يصلِحُهُ الجليسُ الصالحُ

قال: "هذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنَّه قليل الماء والرونق ".

وقول النابغة:

خطاطيفُ حَجنٌ في حبالٍ متينةٍ تمدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ

قال:" ولست أرى ألفاظَه جيادًا ولا مبيِّنةً لمعناه..."

وقول الفرزدق:

والشَّيبُ ينـهَضُ في الشَّبابِ كأنّهُ ... لَيْلٌ يَصيحُ بِجَانبَيهِ نَهارُ

4ـ ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه، من مثل قول الخليل بن أحمد:

إنَّ الخليطَ تصدَّع ... فطر بدائك أو قَع

لولا جوارٍ حسانٌ ... حُورُ المدامعِ أربع

أمُّ البنينِ وأسما ... ءُ والرَّباب ويوزع

موقفه من القديم والحديث:

رفض ابن قتيبة مقياس الشعر على أساس (الزمن) على الرغم من الصراع بين القديم والحديث في الشعر من المسائل التي شغلت أذهان النقاد والأدباء قديماً وحديثاً، وبدأت هذه المحاولات في جهود العلماء و اللغويين الذين اندفعوا بحماس لجمع الشعر العربي القديم وروايته وتوثيقه حرصاً منهم على سلامة اللغة العربية وحفظ شواهدها، وتجاوز هذا الإعجاب بالقديم الى حدِّ التعصب له ورفض كل محدث مهما كانت جماليته أو بغض النظر عن قيمته الفنية.

وقد بان موقف ابن قتيبة من القديم والحديث بشكل جلي، إذ استند الى نقطتين في التنظير لهذه المسألة:

أ- أنَّه لا يوجد قديم مطلق ولا حديث مطلق، فالقديم كان حديثًا، كما أنَّ الماضي كان حاضرًا، والحديث سيكون قديماً، كما أنَّ الحاضر سيكون ماضيًا، ولذلك فإنَّ النظر الى الماضي الذي كان حاضرًا نظرة تقديس لا معنى لها مادام الحاضر المزدرى سيكون ماضيًا مقدسًا، وهذا تناقض في القياس المنطقي، فعلينا أن نرفض هذا التناقض ولا يمكن رفضه إلا بتعديل المقياس النقدي. بدليل أنَّ جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدّون محدثين في زمانهم، إذ إنَّ أبا عمرو بن العلاء يقول:(لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا، كالخريمي والعتّابي والحسن بن هانئ وأشباههم). لذلك رأى أن تكون الجودة حاضرة في تقييم هؤلاء الشعراء بغض النظر عن الزمن، لذلك قال:(فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه).

ب- لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خصَّ به قوماً دون قومٍ، بل جعل ذلك مشتركًا مقسومًا بين عباده في كل دهر. من هذا المنطلق استهجن ابن قتيبة نظرة علماء عصره الذين استجادوا السخيف من النظم لتقدم قائله، لذلك رأى ابن قتيبة أنَّ البراعة غير مقصورة على زمن معين أو قوم معينين، بل جعل ذلك هبة من الله قائلًا: " فإنِّي رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيَّره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنَّه قيل في زمانه أو أنَّه رأى قائله".

نفهم من قول ابن قتيبة أنَّ القدرة الفنية والعبقرية ليست وقفاً على الماضين، وإنَّما هي هبة الله لبني الإنسان من مضى ومن هو موجود الآن، ومن سيأتي في المستقبل.

من ذلك كله لخَّص ابن قتيبة موقفه الوسطي بالآتي:

أ- الحكم بموضوعية على الأشعار من دون التأثر بما قيل مسبقاً، لذلك قال:" ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له، سبيل مَن قلَّد، أو استحسن باستحسان غيره. ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيتُ كلاً حظه، ووفرتُ عليه حقه".

ب- عدم التأثر بمكانة الشاعر الاجتماعية أو زمنه، بدليل أنَّ عدداً من الشعراء نالوا مكانةً اجتماعيةً أو فكريةً أو سياسيةً، إلا أنَّ ابن قتيبة لم يلقِ لذلك بالاً بل وضع الجودة معياراً نقدياً له في الحكم على الشعراء.

ابن المعتز ونظرية البديع: ((ت296هـ))

أبو العباس عبد الله بن المعتز المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العباسي. ولد عام (247هـ)، كان أديبا شاعرا و ناقدا عالما مصنّفا يجيد فنّي النظم و النثر، واسع الثقافة بعدد من فنون المعرفة. ومن كتبه: كتاب الآداب (في الأخلاق)، كتاب البديع، تباشير السرور، فصول التماثيل، طبقات الشعراء المحدثين، أشعار الملوك، سرقات الشعراء، الزهر والرياض، مكاتبات الاخوان بالشعر، الصيد بالجوارح، الجامع في الغناء، حلى الاخبار.

وابن المعتزّ شاعر مكثر مجيد حسن الطبع جيد القريحة بليغا صاحب صناعة. ثم هو قريب المأخذ حسن الاختراع للمعاني فصيح الألفاظ سهل التركيب جميل الديباجة يصيب التشابيه والاستعارات. أما فنونه فهي الأدب والفخر والمدح والرثاء والهجاء والوصف والنسيب والزهد.

بويع له بالخلافة ولكن لم يبق في الخلافة غير يوم وليلة. وتوفي في عام (ت296هـ).

لا بد لمن يريد الحديث عن آراء ابن المعتز النقدية في البديع وغيره ان ينطلق أولًا من حقيقة كونه شاعرا، ليعرف مدى تأثير شاعريته واتجاهه الفني في آرائه النقدية فقد اجمع القدماء على انه يتَّصف بـ :

1-ميله إلى البديع والتشبيهات المبتكرة .

2-التأنق في اللغة الشعرية .

لقد عرَّف ابن المعتز البديع بأنه: "اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو، وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه احد" .

وإذا تتبعنا مفهوم البديع عند ابن المعتز وعند من سبقه وجدناه عاما شاملا كل فنون الصنعة والجمال الفني كالجناس، والطباق، والتشبيه، والاستعارة، والالتفات وحسن الابتداء وحسن التعليل وما الى ذلك، إلا أن مصطلحاته لم تستقر حتى سجلها ابن المعتز وصنَّفها وبيَّن شواهدها في كتاب البديع، وهذا أمر طبيعي لان الظواهر الفنية تسبق الأحكام النقدية والقواعد الفنية التي يصنعها النقاد والدارسون لكل فن شعري، فالشعراء كانوا يستعملون اضرب البديع في اشعارهم ومخاطباتهم دون أن يضعوا لها مسميات وإنما كانت ترد عندهم عفو الخاطر وطوع السليقة، فلا عجب أن تجد اختلاف النقاد في بدء مرحلة التأليف النقدي في إطلاق بعض المسميات على اضرب سميت بغيرها فيما بعد فالطباق مثلا او التطبيق هو (مساواة المقدار) كما ذكر الجاحظ .

إنَّ فنون البديع وأساليبه كانت معروفة عند الشعراء المحدثين وقد سبق إليها القدماء إلا أنَّ المصطلحات لم تستقر بعد، ولم تجمع في كتاب مفرد، ومن هنا يظهر فضل ابن المعتز في قدرته على حصر بعض هذه الفنون وتقسيمها، وإطلاق مسميات لها مع سرد شواهدها وإبداء رأيه في كثير منها.

سبب تأليفه الكتاب:

يرى بعض الباحثين ان كتاب البديع من الكتب المؤلفة دفاعا عن المحدثين واحتجاجا للبديعيين، إذ اثبت ابن المعتز أن البديع معروف في العربية منذ العهد القديم جاء هذا في قوله:" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن الكريم واللغة وأحاديث رسول الله "صلى الله عليه وسلم" وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم

يسبقوا إلى هذا الفن؛ ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغِفَ به حتى غلب عليه وتفرغ فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"[1]

ويرى البعض الآخر ان سبب تأليفه انه كان صورة للصراع بين القديم والحديث، لهذا فهو يرى أنَّ ابن المعتز وقف الى جانب الشعر القديم دون المحدث، وان البديع ليس مستحدثا انما الفضل للقدماء.

ويرى د. داود سلوم أن كتاب البديع جاء دفاعاً عن الشعر المحدث، فقال:(فهو وإن كان في الواقع يريد أن ينفي ادعاء المحدثين حق ابتكار ما سمّاه المحدثون البديع، قد أكد على حقيقة أخرى من حيث لا يشعر هي أنَّ الشعر الحديث لم يخرج على أصول العربية وعمود الشعر في استعمال البديع، وإذا كان قد أسرف المحدثون فهو شيءٌ آخر)

أما الدكتورة ابتسام الصفار، فترى أنَّ ابن المعتز قد عمد إلى تأليف كتاب البديع دفاعاً عن الشعر المحدث بوعي علمي، ودافع أدبي بقصد ترسيخ هذا الفن الذي عيب على المحدثين استعماله، وآية ذلك أن ابن المعتز ميَّال للمحدثين، ويتَّضح ذلك في كتابهِ (طبقات الشعراء)، إذ أراد القول إنَّ البديع ليس بمستحدث ولا بمعيب؛ لأن القدماء قد عرفوه. وقد ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لذلك كتب ابن المعتز في البديع ليقول إنَّ البديع ليس عيباً على الشعر المحدث.

إنَّ دراسة سبب تأليف كتاب البديع يجب أن لا تنفصل عن شخصية ابن المعتز الشاعر وعن مواقفه النقدية الأخرى وتآليفه التي يستنتج منها موقف نقدي، فابن المعتز من انصار المحدثين ونجد صحة هذا الرأي عند دراستنا لكتابه الآخر طبقات الشعراء، وهو ميال الى استعمال البديع ميلا يجعل كتابه البديع صدى لشاعريته.

([1]) البديع لابن المعتز : 1 .

لقد عاب كثير من النقاد على الشعراء في زمانه استعمال البديع والمحسنات اللفظية بشكل مفرط، لذا رأى ابن المعتز ان يتصدى للدفاع عن السمة التي عرفت بها اشعارهم وهي (إيراد البديع والتفنن فيه) ليقول لنا ان البديع ليس بمستحدث ولا بمعيب لان القدماء قد عرفوه، وقد ورد أيضا في القران الكريم والحديث النبوي الشريف، فالكتاب اذن دفاع عن الشعر المحدث، وابراز لأهم قضية شغلت بال النقاد وحكمت مواقفهم منه، كتب ابن المعتز في البديع لئلا يعد البديع عيبا على الشعر المحدث، وبين أقسامه ليحتذي الشعراء المحدثون حذو القدماء في الجيد من البديع وهو في كثرة شواهده التي اختارها يدلنا على ذوقه الأدبي الرفيع من جهة، وعلى النزعة العربية الخالصة في التأليف النقدي من الجهة الأخرى، فكتاب البديع يدل على اصوله العربية التي لم تتأثر بعد بالثقافة الأجنبية.

لقد خطا ابن المعتز في تأليفه لهذا الكتاب خطوة جديدة في قضية القديم والحديث من الشعر، فبعد ان وصل الشعر المحدث الى مرحلة المطالبة بالمساواة مع القديم والدعوة الى النظر بعين العدل والإنصاف عند الجاحظ وابن قتيبة خطا على يد ابن المعتز خطوة جديدة ظهرت في التأليف بأهم قضية تخص الشعر المحدث وهي ما لازم شعر الشعراء من ميزات، استعمال الفنون البديعة، والتوسع في استعمال المفردات اللغوية على خلاف ما كان القدماء يستعملونه، فتصدى ابن المعتز للتأليف في البديع، ليقول ان هذه الظاهرة ليست من ابتكار المحدثين، وانما سبقهم إليها القدماء فلا داعي لتوجيه سهام النقد والعيب عليهم.

منهج الكتاب:

قسم ابن المعتز انواع البديع في أول كتابه الى خمسة أبواب هي: الاستعارة والتجنيس والمطابقة ورد إعجاز الكلام على ما تقدَّمها والباب الخامس هو المذهب الكلامي.

ومن ذلك قوله: " من الكلام البديع قول الله تعالى: **(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)**، ومن الشعر البديع قوله: (من البسيط)

والصبُحُ بالكوكب الدُّري منحورُ

وإنَّما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها مثل أم الكتاب ومثل (جناح الذل) ومثل قول القاتل (الفكرة مخ العمل) فلو كان قال لب العمل لم يكن بديعاً، ومن البديع أيضاً التجنيس والمطابقة، وقد سبق إليهما المتقدمون ولم يبتكرها المحدثون " .

ومثَّل للأقسام الخمسة فبدأ بالاستعارة فمثَّل لها بقول الشاعر:

وغداة ريح قد كشفت وقرةٍ إذا أصبحت بيد الشَّمال زمامها

ومنها:

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربةً غادرته عودًا ركوبـــــــا

وقول الكميت:

ولما رأيت الدهرَ يقلِبُ ظهره ... على بطنه فعل الممعّك بالرّمل

ومن التجنيس، قول محمد بن كُناسة:

وسميته يحيى ليحيا ولم يكنْ ... إلى ردَ أمرِ الله فيهِ سبيلُ

وقول أبي نواس:

عباسُ عبّاسُ إذا احتدمَ الوغَى ... والفضل فضلٌ والرّبيع ربيعُ

ومن المطابقة، قوله تعالى:(**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**)، وقوله (صلى الله عليه وسلم):(**إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع**).

رد الأعجاز على الصدور، وهو رد أعجاز الكلام على ما تقدمها، ومنه قول الأُقيشر:

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ العَمِّ يَشْتُمُ عِرْضَهُ ... وَلَيْسَ إِلَى داعِي النَّدَى بِسَرِيع

اما المذهب الكلامي، فقال فيه ابن المعتز: وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً– وقال أبو الدرداء: إن أخوف ما أخاف عليكم أن يقال: علمت فماذا عملت.

وقال الفرزدق:

لكل امرئ نفسان نفس كريمةٌ ... وأخرى يعصيها الفتى ويطيعها

ونفسك من نفسيك تشفع للندى ... إذا قل من أحرارهن شفيعها

وليس من شك أن ابن المعتز قد اقتصر في تأليفه على أبواب خمسة من البديع، وان كان كتابه قد انتهى، ولكنك تُفاجأ بعد هذه الخاتمة التي ذكرها قائلاً:(فمن أحبّ أن يقتدي بها ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ولم يأت غير رأينا، فله اختياره)، وسرد أبواباً جديدة في البديع عددها ثلاثة عشر باباً هي: الالتفات، الاعتراض، الرجوع، حسن الخروج، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تجاهل العارف، الهزل يراد به الجد، حسن التضمين، التعريض والكناية والافراط في الصفة، وحسن التشبيه، ولزوم ما لا يلزم، وأخيراً حسن الابتداء .

وتبدو هذه الأبواب وكأنها جزء ثاني للكتاب، الا أنها إذا قورنت بالأبواب الخمسة الأولى وجدت قصيرة عدا حسن التشبيه .

ومما اتخذه منهجاً في سرد الشواهد فإنه يبدأ بذكر شواهد القران الكريم والأحاديث النبوية، فكلام الصحابة ثم شواهد الشعر العربي، ومما ذكر في باب الاستعارة قوله تعالى:(**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...)** قوله تعالى **(وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)**

ومن الشعر القديم قول امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ويذكر في الباب الثاني من البديع التجنيس والمطابقة، والتجنيس عنده: أن تأتي الكلمة تجانس الأخرى في بيت شعر وكلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألَّف الأصمعي كتاب (الأجناس) عليها.

الجناس عنده على نوعين:-

1-أن تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها ومعناها، ومشتق منها قول الشاعر: (ويوم خَلِجْت[2] على الخليج نُفُوسُهم)

2-ان يكون تجانسها في تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الشاعر:-

(إن لومَ العاشق اللُّوم)

ويستمر ابن المعتز في سرد الأبواب حتى يصل الى الباب الخامس وهو المذهب الكلامي، فلم يتمثَّل فيه بشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف، وانما اكتفى بذكر ثلاثة أمثلة في الشعر والنثر، وذهب ابن المعتز في فاتحة الباب قائلاً:(وهو مذهب سمّاه أبو عمرو الجاحظ المذهب الكلامي، وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً وهو ينسب الى التكلف، تعالى الله من ذلك علواً كبيراً) فهو مسوغ كافٍ لتنزيه القران الكريم والحديث الشريف؛ لأنه منسوب الى التكلف .

([2]) خلجت: أي جذبت، والخليج بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهاتان اللفظتان متفقتان في الصيغة واشتقاق المعنى .

ومن الملاحظ على ايراده الشواهد أنه كان يستعين برأي أحد اللغويين في أصل دلالة الكلمة المستعارة، واكتفى بشروحه وتعليقاته البسيطة على بعض الشواهد، ففي باب حسن التشبيه يذكر قول امرئ القيس:

كأن قلوبَ الطَّير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

فقد ذكر أن امرأ القيس إمام الشعراء، وهذا الوصف قد سبقه قبله الأصمعي في فحولة الشعراء قائلاً:(أولهم في الجودة امرؤ القيس له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذهبه).

أما في باب الالتفات، فقد حدد مفهوم الالتفات، واستشهد له بشواهد من القرآن الكريم، كقوله تعالى:(**حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ...)**

واستشهد بالشعر العربي، فمن ذلك قول جرير:

طرب الحمامُ بذي الأراكِ فشاقني لا زالتَ في غللٍ وأيكٍ ناضرِ

ونجده أيضاً يتحدث في باب تأكيد المدح بما يُشبه الذَّم، كقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلولُ من قراعِ الكتائبِ

وقول الجعدي:

فتى كملت أخلاقُه غير أنَّه جوادٌ فما يبقى من المالِ باقيا

واذا كان موقف ابن المعتز في كتاب البديع يمثل مرحلة نقدية مهمة فإنَّ تتبع آراء ابن المعتز فيه يدلنا على فكر متذوق للأدب عارف بمواطن الإجادة والإحسان، ولما كان قصده تصنيف فنون البديع وإدراج شواهده الجميلة فانه لم يأخذه التعصب لهذه الظاهرة الفنية، فنبَّه الى وجود شواهد لم يحسن أصحابها استعمال البديع وهكذا نجده منذ البداية

منبِّها الى قضية عرفها خصوم أبي تمام وأنصاره وهي إفراطه في الصنعة الفكرية واللفظية مما عد خروجها على عمود الشعر العربي فيقول:" ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغفَ به حتى غلب عليه وتفرغ فيه واكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يُستحسنُ ذلك منهم إذا اتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام المرسل وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبدالقدوس في الأمثال ويقول لو ان صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على مدّ ميدانه وهذا اعدل كلام سمعته في هذا المعنى "

لقد كانت آراء ابن المعتز النقدية منصبة غالبا على أهم قضية شغلت بال النقاد والشعراء المحدثين وهي ما عرف عن الشعراء العباسيين من عنايتهم بلغتهم الشعرية وتأنقهم في اختيار ألفاظهم، وإلباسها حلل البديع من جناس وطباق واستعارة، وقد كان لشاعرية ابن المعتز تأثير في تبني هذه القصية فقد أدركها بذوقه الرفيع في أشعار معاصريه .

مدرس المادة

د. نهاد فخري محمود الهيتي